

الموسسة
العربية
للدراسات
والنشر

سلسلة أعلام الفكر العالمي

لوكاش

…ايم
…كيالي
يوسف شويري
مراجعة وتقديم: د. أسعد رزوق


جورج لوكاش

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

LUCAS

By

George Lichtheim

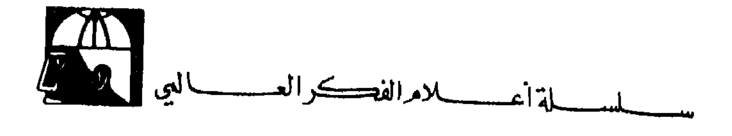
First Published 1970

Fontana - Collins

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً: موكيالي بيروت . ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٢



جورج لوكاش

تأليف : جورج لختهايم

ترجمة : ماهر الكيالي
يوسف شويري

مراجعة وتقديم : د. أسعد رزوق

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

تصدير

ولد جورج لوكاش عام ١٨٨٥ في مدينة بودابست ، ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٠٩ . ثم قام برحلات زار خلالها المانيا وايطاليا . وبعد ان أمضى فترة دراسية طويلة في برلين انتقل من هناك الى هايدلبرغ عام ١٩١٣ ، حيث تردد على حلقات عالم الاجتماع الالماني ماكس فيبر وأقام صداقات مع مفكرين من طراز باول ارنست والفيلسوف الماركسي ارنست بلوخ . انضم لوكاش الى الحزب الشيوعي الهنغاري عام ١٩١٨ ، وشغل منصب مفوض الشعب لشؤون الثقافة في الحكومة الثورية التي يرأسها بيللّا كون عام ١٩١٩ . وبعد إطاحة هذه الحكومة هاجر الى مدينة فيينا . فقام من هناك بزيارات غير مشروعة الى هنغاريا ، وأسهم بالعمل في معهد ماركس ـ انجلز ـ لينين بموسكو ، ثم انتقل الى الاقامة في برلين لفترة طويلة . وخلال الفترة الممتدة من ١٩٣٣ الى ١٩٤٤ اشتغل لوكاش في أكاديمية العلوم بموسكو . ولدى عودته الى هنغاريا أصبح عضواً في البرلمان وفي المجلس الرئاسي لاكاديمية العلوم المجرية ، مثلما انه نال كرسي الاستاذية لعلم الجمال وفلسفة الحضارة في جامعة بودابست .

اشترك في ثورة المجر عام ١٩٥٦ وشغل منصب وزير الثقافة في حكومة ايمري ناجي . واثر انهيار نظام الحكم الجديد تم ترحيله الى رومانيا ، لكنه استطاع بعد زمن قصير العودة الى مسقط رأسه في بودابست ، حيث كرّس نفسه منذ ذلك الحين لاعماله العلمية . ولقد توفي لوكاش في صيف العام ١٩٧١ .

بقي طيلة حياته ماركسيا ، رغم محاولاته المتكررة لكسر طوق الأرثوذكسية الماركسية التي دافعت عنها موسكو . مثلما انه ظل في كتاباته حول نظرية الأدب ذلك المفكر الذي استلهم ماركس وهيغل . ومما لا ريب فيه ان حياته وأعماله كانتا على ارتباط وثيق العرى . حتى ان الفترة الممتدة من ١٩٠٢ الى ١٩١٧ كانت مكرسة كليا للأدب والجماليات ، بينما امتد انخراطه في النضال السياسي واهتمامه بالموضوعات السياسية من ١٩١٨ الى ١٩٢٥ . واستأثرت النشاطات التنظيمية بوقته كله من ١٩٢٩ الى ١٩٣١ . لكنه عاد الى الموضوعات الأدبية والجمالية عام ١٩٣١ ، دون أن يفقد اهتمامه بالسياسة وعلم الاجتماع .

والكتاب الذي بين يدي القارىء العربي يتناول جورج لوكاش من خلال مؤلفاته التي جمعتها احدى دور النشر الالمانية الغربية في اثني عشر مجلدا ، على ان المكتبة العربية ما زالت تفتقر الى كتاب يعرّف القارىء بأفكار جورج لوكاش ومواقفه الماركسية . هناك ترجمة عربية لكتاب هنري ارفون عن لوكاش (ترجمة د . عادل العوا ، دمشق ١٩٧٠) بالاضافة الى ترجمة لكتابين من كتب لوكاش : « ماركسية ام وجودية ؟ » (ترجمة جورج طرابيشي في منشورات دار

اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق) و « دراسات في الواقعية الأوروبية » (ترجمة امير اسكندر ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٧٢) ، وكذلك فان المقالات التي اصدرتها دار الطليعة بعنوان « في التنظيم الثوري » تضم مقالة لوكاش التي عنوانها « غاليله الاشتراكي » . عسى أن يكون هذا الكتيب عن حياة لوكاش وأعماله فاتحة لدراسة مؤلفات المفكر الماركسي الذي لم يبارحه الامل حتى أواخر أيامه في حدوث « نهضة للماركسية » واحياء للافكار التي نادى بها صاحب كتاب « التاريخ والوعي الطبقي : دراسات في الجدليات الماركسية » (١٩٢٣) .

ولا بدّ من تنبيه القارىء الى تجذّر لوكاش في التقليد الفلسفي الالماني بنوع خاص وفي التربية الفكرية الالمانية عموما . وهذا ما يبينه الكثير من كتاباته ومؤلفاته التي يتناولها هذا الكتاب بالشرح والتحليل النقدي .

الدكتور اسعد رزوق

مقدمة

تقضي الضرورة بأن تكون هذه الدراسة التي تتناول حياة جورج لوكاش وأعماله دراسة قصيرة وانتقائية. فالغاية منها تسهيل فهم كاتب ذي شأن نشرت معظم أعماله باللغة الهنغارية او الالمانية. لذلك فهي اساسا مقالة في التأويل او التفسير Interpretation تبغي افادة الطلاب من ذوي الثقافة الأميريكية او البريطانية. ان هذه المهمة ستكون صعبة، حتى ولو كان لوكاش أقل خصوبة ككاتب، فهناك العديد من المشاكل التي لا بد من مواجهتها بصراحة، ومنذ البداية. ينتمي لوكاش بقوة للتقليد الأوروبي المركزي في فكره، والمعروف ان الافتراضات التي يقوم عليها هذا التقليد، لا يوجد لها في الغالب مقابل دقيق عند الناطقين بالانجليزية. أضف الى ذلك تمسك لوكاش بالطريقة الهيغلية في التحليل، بالرغم من التزامه بالماركسية مدة نصف قرن، وهي طريقة غير مقبولة، بصورة عامة، من اللينينيين، ناهيك عن الماركسيين الغربيين على اختلاف ميولهم السياسية.

وقد ادت انهماكات لوكاش الشخصية، بعد عام ١٩١٧، في

بلده الام هنغاريا وضمن الفلك الاوسع للحركة الشيوعية الى بروز تكتلات ومناظرات جبهوية قد انطوت بالنسبة الى لوكاش على اهمية بالغة، ويستدل على ذلك من خلال ملاحظاته في السيرة الذاتية ومقدماته التي كتبها في السنوات الأخيرة للطبعات الغربية من اعماله. وفي بعض الحالات انتهز الفرصة للتراجع او لمراجعة أحكام سابقة، بيد أنه استغل في حالات اخرى التغييرات في المناخ السياسي لينكر نزعاته التوفيقية مع الارثوذكسية السائدة في شرق أوروبا في الثلاثينات والاربعينات، ليصفها بأنها كانت محض تكتيكية. وثمة تسجيل لهذه المناورات المتأرجحة في مقدمة الجزء الثاني من كتاباته التي ظهرت عام ١٩٦٧، كجزء من اعماله الكاملة التي يقوم ناشر الماني غربي بنشرها. وهذا الجزء بالذات يحتوي على الدراسة التي تحمل عنوان «التاريخ والوعي الطبقي» History and class Consciousness والتي ادى ظهورها عام ١٩٢٣ الى حدوث الخصام بينه وبين الارثوذكسية السوفياتية الناشئة. فبينما يتنكر في مقدمة كتابه الذي نشر عام ١٩٦٧ لمواقفه الفلسفية التي سبقت ظهور اللينينية، نجده ايضا يحيي خلافات تنظيمية مختلفة خلال الفترة نفسها ويحاول ان يبرز، ولو بشكل متأخر، آراء سياسية معينة نادى بها حوالى عام ١٩٢٨. ثم يصف بوضوح نقده الذاتي الوحيد الذي كان قد نشره بعد ذلك بوقت قصير، عندما واجه خطر طرده من الحزب الشيوعي، بأنه تكتيكي وغير جدي. (وجدير بالذكر انه واجه المصير نفسه اثر مشاركته القصيرة عام ١٩٥٦ في المحاولة المشؤومة من أجل اضفاء الصفة الديمقراطية على النظام المجري).

وفي غضون عام ١٩٣٠ - ١٩٣١ عمل لوكاش في معهد ماركس -

انجلز في موسكو ولعب دورا بارزا في الحياة الأدبية للحزب الشيوعي الالماني في برلين بين عامي ١٩٣١ - ١٩٣٣، ثم التحق عام ١٩٣٣ بمعهد الفلسفة التابع لاكاديمية موسكو للعلوم، وبقي هناك حتى العام ١٩٤٤ حيث ساعد في تحرير المنشورات الأدبية، الى ان عاد الى المجر اثر دخول الجيش الروسي.

تعرض لوكاش، ابان الفترة التي كان يشغل فيها منصب استاذ علم الجمال والفلسفة الحضارية، في عهد ماتياس راكوسي Rakosi في بودابست، للهجوم من قبل العناصر الستالينية المتطرفة، فبدأ بالانسحاب تدريجيا من حياة الحزب النشطة. الا أنه عاد وبرز مرة اخرى بعد الانفراج الذي اعقب خروج ستالين عام ١٩٥٣ وخلال انتفاضة اوكتوبر - نوفمبر تشرين الأول والثاني القصيرة عام ١٩٥٦ واصبح عضوا في اللجنة المركزية للحزب، ووزيرا للتعليم في حكومة ايمري ناجي Nagy. وقد سلم من الموت بالرغم من سقوط الأخير واعدامه، ثم عاد الى بودابست وبعد ان نفي فترة وجيزة الى رومانيا وسمح له بالاقامة ابان حكم جانوس كادار Kadar، بيد ان كتاباته تعرضت للحظر الرسمي فاضطر الى نشرها في الغرب. وبعد السماح له بدخول الحزب الشيوعي ثانية عام ١٩٦٧، عرف عنه انه كان يحتج في مجالسه الخاصة على غزو تشيكوسلوفاكيا واحتلالها. وفي آذار عام ١٩٦٩ وبمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الجمهورية السوفياتية المنغارية القصيرة العمر، قلد رسميا وسام «الراية الحمراء» وسمح له، مرة اخرى، ان يعبر عن آرائه بصورة علنية في مقابلات مع المراسلين من الشرق والغرب.

ان محاولة القيام بدراسة شاملة لاعمال لوكاش منذ مطلع القرن، تظهر الاهمية المصيرية للحرب العالمية الاولى وللثورة الروسية عام ١٩١٧. فلقد اصبحت حقيقة بدهية ان كلا الحدثين، قضى على نمط معين من العيش وعلى ميزان القوى السياسي القائم حينذاك. ما هو بحاجة الى التأكيد مجددا هو الوضع الحاسم لالمانيا ولهنغاريا ـ النمسا. فبينما نجد ان الشيوعية انبثقت من اشتعال الثورة الروسية، وان رواد الفاشية ظهروا في فرنسا وايطاليا قبل عام ١٩١٤، فان الاسهام الفكري الحاسم كان على يد منظّرين اقاموا في المانيا وفي المملكة الثنائية هنغاريا ـ النمسا بالاضافة الى عدة دول خلفتها بعد عام ١٩١٨. لذلك يمكن القول، وفقا لهذا المنظور، بأن ما فعله لوكاش من اجل الشيوعية يماثل ما قدمه معاصره اوزوالد شبنغلر Spengler لمنافستها الفاشية. ومنذ وفاة لينين عام ١٩٢٤ لم تنجب روسيا سوى قلة من المفكرين الأصيلين لم يكن بينهم واحد ذو اهمية عالمية. من هنا اكتسبت هرطقات لوكاش الفكرية تدريجياً اهمية لم تتمتع بها من قبل. ونتيجة لأن أوروبا الوسطى كانت في العشرينات والثلاثينات، ساحة للمعارك الايديولوجية والسياسية، فلقد انتشرت المشاعر التي حركتها هذه المناقشات بحيث أصبحت دوائر اوسع وابقى كارل كورش Korsch، الذي انفصل عن الشيوعية الدولية في وقت لاحق، وبقي ماركسيا، بخلاف لوكاش، الجدل حيا ضمن محيط الاشتراكية الالمانية كذلك انعكس صدى هذه المناقشات في الدراسات الاجتماعية والتاريخية التي قام بها بعض الباحثين التابعين لمعهد فرانكفورت، واشهرهم ماكس هوركهايمر Horkheimer، وتيودور ادورنو وهربرت ماركيوز. ويمكن ان نجد لاعمال لوكاش

المبكرة تأثيرا على كتابات ولتر بنجامن الناقد الأدبي المعروف في عهد جمهورية فايمار، بيد ان اعمال بعض الباحثين (المهاجرين قسرا) المنفيين Emigre امثال لوفنثال Lowenthal تعكس صدى ابعد لتأثيره.

ومن اوروبا الوسطى انتقلت رسالة لوكاش الماركسية ـ الهيجلية الى فرنسا، على يد الناقد الروماني الاصل لوسيان جولدمان، الذي قام بدراسات عن باسكال وراسين، عرفت العالم الفرنسي الاكاديمي بالطريقة الجديدة لمعالجة القضايا الأدبية. وبالمقابل لم يكن للوكاش تأثير على الأجيال الصاعدة من الكتاب الماركسيين، في السنوات الأخيرة. فهو بالنسبة اليهم كان تقليديا، بشكل عام متأثرا بشكل خاص وعميق بالافكار السائدة في الأدب السوفياتي. اما التطوريون (من امثال ارنست فيشر الشيوعي النمساوي المحنك) فقد كانوا يميلون الى تجاوز لوكاش في محاولتهم بناء قاعدة ماركسية لارتباط الفن بالقضايا الاجتماعية.وايضا في مجال الفلسفة كانت الوجودية التي نادى بها سارتر، وليست اعمال لوكاش بعد الانفراج عام ١٩٥٦ هي التي مكنت بعض الماركسيين الشرقيين الشباب، من امثال الفيلسوف البولندي كولاكوفسكي Kolakowski من تحرير انفسهم من القيود الايديولوجية الستالينية.

وفي هذه العجالة، فان ذكر هذه الأمور، بغض النظر عما تعنيه لعالم الأخلاق، انما يهدف إلى اظهار صعوبة فصل الفلسفة عن السياسة في اعمال لوكاش. فثمة انسجام وتوافق في التزاماته النظرية والعملية يظهر من خلال دراسة مؤلفاته الضخمة. كذلك يمكن تتبع

عناصر مهمة في تفكير لوكاش قبيل عام ١٩١٤، حين ظهرت اهتماماته الفكرية، وفي خلفيته الاجتماعية، وفي ميراثه الروحي، كمفكر للانتلجنسيا اليهودية الهنغارية. وبينما ستجد هذه الموضوعات متنفسا قصيرا لها في دراستي هذه، الا انني حاولت بشكل عام ان اركزها على تحليل للاسهام الذي اسداه لوكاش الى النظرية الماركسية. وبالتحديد في مجال اختصاصه الا وهو علم الجمال. طبعا انه لمن المتعذر معالجة هذه الفكرة بروح البحث العلمي المجرد. لذا فبامكان المرء أن يهدف الى الموضوعية بالمفهوم الهيجلي لها اي ان يحاول تعيين موقع لأهمية تلك الظاهرة الفريدة من نوعها والتي تنضوي تحت اسم جورج لوكاش.

الفصل الأول

ولد جورج لوكاش Gyorgy Lukacs في ١٣ نيسان (ابريل) ١٨٨٥ ، من ابوين يهوديين ثريين، كانا يقطنان بودابست، العاصمة الثانية للمملكة النمساوية الهنغارية حينذاك. وكان والده مديرا لبنك مؤسسة التسليف (كرديت انشتالت) احد اهم البنوك في بودابست في ذلك الوقت. وقد اظهر لوكاش منذ صباه شغفا بالأدب وموهبة عظيمة في النقد، وتعود اولى كتاباته الى عام ١٩٠٢ . ساهم بحيوية في الحياة الفكرية لمدينته ولّما يزل في اوائل العقد الثالث . وفي العام ١٩١١ كتب دراسة حول الدراما في جزئين، بلغت صفحاتها الالف. وفي العام نفسه نشر دراسة فلسفية بالالمانية بعنوان «الروح والاشكال» « The Soul and the forms » سبق أن نشرت في بودابست قبل عام. ومنذ ذلك التاريخ بدأ يتخلى تدريجيا عن اللغة المجرية ليكتب باللغة الالمانية، وفي السنوات اللاحقة اصبح معروفا على النطاق العالمي باسمه الالماني جورج لوكاش عوضا عن «فون لوكاش» وهو اسم شرف منحته لوالده السلالات الحاكمة.

وقد ادت بعض التطورات الفكرية المعقدة الى انتقاله من النزعة

الجمالية، السائدة بين المثقفين في اوروبا الوسطى قبل عام ١٩١٤، الى قبول Lebens Philosophie وهي شكل من اشكال مذهب فلسفة الحياة او الحدسية والتي كانت بمثابة القطب المعاكس لمذهب العقلانية العلمية. وقد تقبل كطالب في بودابست (حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٠٦) مذهب الكانطية الجديدة السائد والـذي حفظ البحث المنتظم عن الحقـائق التجريبيـة للفـروع المتخصصة في العلوم والآداب، بينما قصر الفلسفة على علم المنطق ونظرية المعرفة. وفي عام (عام ١٩٠٩ - ١٩١٠) بـدأ يستمع لمحاضرات الفيلسوف وعالم الاجتماع جورج سيميل Simmel في جامعة برلين، حين تبنى تفسير الاخير الشخصي لمذهب الكانطية الجديدة التي كانت تضرب جذورها في اعمال فيندلباند وريكرت ثم صاحب تلميذ ريكرت النابغ اميل لاسك Lask.

وخلال تلك السنوات تركزت الحياة الثقافية في المانيا قبل الحرب الأولى على تذويب المدرسة الكانطية الجديدة، وبروز علم الظاهرات او الفينومينولوجيا Husserl ونمو الميول اللاعقلانية والحدسية المنبثقة بالنهاية عن الحركة الرومانسية. وكانت المدرسة الكانطية التقليدية الممثلة بهرمان كاهن وبول ناتروب في جامعة ماربورغ ترمز الى التمييز الصارم بين نظرية المعرفة وبين الميتافيزيقا التأملية. اما مدرسة هايدلبرغ فقد كانت تميل الى اعطاء اهمية اكبر للتاريخ من العلوم الطبيعية. وقد سهل تأثيرها ما اسماه ويلهم‌ديلثاي١٨٣٣ - ١٩١١ بـ Geistewissenschaft علم العقل او الروح*. وقد كان الخلاف يدور

(*)استخدم ديلثاي هذا المصطلح للدلالة على العلوم التي تقوم بدراسة نتاج العقل حيث ان موضوعها هو العالم العقلي.

حول ما اذا كان يمكن للفلسفة ان تهدف بحق الى ما هو أبعد من تعميم الطريقة العلمية. لقد مثّل كل من ديلثاي وسيميل الردة في وجه وضعية العلوم الطبيعية وفي وجه مدرسة ماربورغ التي انكرت امكانية التبصر في الطبيعة الحقيقية للواقع. فكانا يؤمنان، شأنهما في ذلك شأن معاصرهم هنري برغسون الذي ترك مؤلفه «التطور الخلاق» L'évolution créatrice (١٩٠٧) أثرا ملحوظا على سيميل، بأن جوهر الحقيقة يمكن ادراكه عبر فعل من الحدس العقلي.

ان مفهوم «علم الروح» عند ديلثاي كان شيئاً مختلفاً، بصورة اساسية، عن الطريقة العقلانية حيث قامت العلوم الطبيعية والاجتماعية بتفسير العالم وفق علاقات سببية. وقد كانت مهمة المؤرخ بالنسبة اليه تقوم على الفهم «التأويلي» Hermeneutic understanding للماضي من خلال استعادة مبتكرة لافكار الآخرين. ان عملية الفهم هذه تعني ان ينقل المرء نفسه الى بعد روحي مختلف، وهي عملية اطلق عليها ديلثاي اسم الحياة من جديد Reliving ـ متابعا في ذلك اللاهوت الرومنطيقي الذي وضعه شلير ماخر. ان هذا العمل، الذي هو في النهاية عمل شخصي لا عقلاني والمتمثل في اعادة الصياغة الروحية كان ينظر اليه بانه مناسب للعلوم الاجتماعية. فالتأويل يرمز الى اسلوب في الفهم لا يعتمد على التفسير السببي بل انه يهدف بالاحرى الى تفهم الابداعات المتعددة الاشكال للروح البشرية. ان اعمال العقل لها أهمية خافية ينبغي على «علم الروح» Geisteswissen - schaft أن يعمل على إماطة اللثام عنها. وقد ظهرت طريقة ديلثاي أول ما ظهرت في علم النفس، مما حمل فيند لباند ان يطلق تحذيرا عام ١٨٩٤ ضد الخلط بين البحث

الطبيعي عن القوانين العامة والتحليل التاريخي للحادثة الفريدة والوحيدة. وتشير كتاباته الاخيرة الى تأثير هسرل عليه في رفضه المتطرف «للنفسانية» Psychologism. ان ما اسماه «علم الروح» قد نظر اليه منذ البداية كمغامرة فلسفية. وهكذا توصل ديلثاي بالنهاية الى مقولة «المعنى المراد» او المقصود الذي مكنه من الافتراض بوجود علاقة موضوعية بين حقائق معينة (اعمال فنية مثلا) وتاريخ الروح البشرية.

وبالرغم من اصالة مغامرة ديلثاي، فانها كانت متأثرة بالمدرسة الألمانية لا سيما المدرسة التاريخية التي ارتبطت في بداية القرن التاسع عشر باسماء مثل همبولدت، نيبور، سافينيي، جريم وشلير ماخر. ان ما اكدت عليه المدرسة هو استقلالية التاريخ والانثروبولوجيا - علم الانسان - ودراسة الدين مقابل البحث الوضعي عن قوانين السببية التي تنطبق على الطبيعة والتاريخ على حد سواء.

وقد نشأ عن هذه الطريقة نتيجة طبيعية مهمة وهي ان جميع الظواهر الفردية تنتمي الى كل منتظم بينها تميل وضعية العلوم الطبيعية الى اعتبارها نسخا بمثابة امثلة دالة على قاعدة عامة. ولاسباب بديهية فان الطريقة التاريخية - مثل الفلسفة الرومانتيكية بشكل عام - تشبع رغبات الفنانين اكثر من العلماء، لذا نجد ان الثورة ضد العقلانيين استخدمت على نحو انموذجي المفاهيم المشتقة من انموذج الابداع الفني. وفي الوقت نفسه تضمن التشديد المنبثق عن مذهب الكل Holism والقائل باعتماد الاجزاء على الكل دلالات بالنسبة للعلوم الاجتماعية. وقد طور كل من فيند لباند

وريكرت وديلثاي وسيميل تدريجيا التمييز بين «الطبيعة» والتطبع وهو تمييز كان يرفض ظاهريا البحث عن «قوانين التطور». وقد دعمت كتاباتهم ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) في بحثه عن طريقة سوسيولوجية تنظر في معنى الاعمال الفردية بالنسبة للآخرين. ان وصف فيبر لعلم الاجتماع بانه محاولة لفهم النشاط الاجتماعي «على مستوى المعنى» كان مرتبطا بوضوح باعمال الباحثين الذين سبق ذكرهم.

وفي كتاباته المبكرة رضخ لوكاش لهذه الطريقة بعد ان كان ناقش في مقالاته الأدبية شعر الرومانسيين ثم ادان هذه المرحلة في سنوات لاحقة باعتبارها تمثل انحراف او زيغ الشباب ووصف فلسفته المبكرة بانها «مثالية ذاتية» وهو مصطلح يوقف على المذاهب المشتقة من «كانط». من هنا لا بد ان تعالج تأملاته الواردة في سيرة حياته بشيء من الحذر اذ توجد بعض الشواهد التي تشير الى انه بعد سنوات تلمذته، لم يصبح «كانطيا» جديدا اطلاقا بل كان لا أدريا Agnostic ويعتبر الكون، بالتحليل الأخير، غير قابل للادراك والمعرفة كليا. ان مؤلف «الروح والاشكال» يبدو وكأنه قد آمن بأنه يمكن للمرء في مجال علم الجمال ان يتصل بالحقيقة المطلقة من خلال فعل حدسي مباشر.

وبعيدا عن كونه مفكرا مثاليا ذاتيا في نظرته الى «نقده الذاتي»، فقد كان من الجلي تماما انه تأثر أيما تأثر باميل لاسك وموقفه شبه- الفينومينولوجي اثناء مقامه في هايدلبرغ، الأمر الذي سهل له، فيما بعد، الانتقال الى مثالية هيجل الموضوعية. اننا نشير هنا الى الفترة

الواقعة فيما بين عام ١٩١٣ ـ ١٩١٤ عندما كان لوكاش قد استقر في هيدلبرغ واصبح عضوا في حلقة ماكس فيبر. وكان اميل لاسك (١٨٧٠ ـ ١٩١٥) يعمل كأستاذ للفلسفة في جامعة هيدلبرغ في ذلك الوقت فكان لا بد ان يقع لوكاش تحت نفوذه، وقد زوده كتاب لاسك (منطق الفلسفة ونظرية المقولات) بأساس منطقي لضرب من الافلاطونية الجديدة والتي سبق للوكاش ان تحول نحوها بشكل غريزي. وهذا بدوره مهد الطريق امام ايمان في عالم للكينونة يتجاوز الحس ويمكن الدفاع عنه منطقيا. اما دراسات لاسك في علم الأخلاق والجمال وفلسفة الدين ـ والتي اعترضتها الحرب عام ١٩١٤ وتوفي بعد وقوعها بسنة ـ فقد وضعته في رحاب مدرسة ادموند هوسرل الفينومونولوجية. وقد ظهر اثر لاسك بعمق على تطور لوكاش الفكري في تلك السنوات فالى جانب انه كان يكبره في السن فقد كان مفكرا يتمتع بقوة فكرية غير مألوفة ونفاذ في نظرته والذي أخذ في التحول التدريجي نحو نظرة يمكن ان توصف بحق بانها نظرة ميتافيريقية.

ان مثل هذا النوع من الاتجاهات لم يكن غريبا حوالى العام ١٩١٠، ولكن الحرب العالمية الأولى هي التي وضعت الأمور في نصابها. فخلال تلك السنين العصيبة فقدت الفلسفة الاستاذية التي قسمت المعرفة الى أجزاء مستقلة ما كانت تتمتع به من سلطات. وكان ثمة رجال من امثال فيبر يؤكدون بأن العودة الى الميتافيزيقا مستحيلة، ولكن الجيل الجديد كان يطالب بنظام «كلي» عن «الحقيقة» في العالم. وقاد هذا البحث بعض الكتاب من ذوي الميول

الفلسفية الى الدين والبعض الآخر الى الرفض العدمي للثقافة ككل. اما لوكاش - فلأسباب سوف تتضح بعد حين - فقد تحرك باتجاه مختلف: نحو هيجل. ولعل من المهم الإشارة الى ان أعماله الفلسفية ابتدأت بالنقد الأدبي. وقد اصبح خلال تلك السنوات عضوا في الحلقة المقصورة على فئة قليلة من الخاصة والمحيطة بالشاعر ستيفان جورج، وكان الانغماس في السياسة ابعد ما يكون عن فكر اولئك الرجال. وقد اعتنى تلامذة غوته ونيتشه هؤلاء ومعهم شعراء «نهاية القرن» (Fin du siècle) من ذوي الميول الصوفية، بتنمية ضرب من الفردية التي وجدت شرعيتها في النفور العميق من عالم الناس العاديين. وثمة موقف مشابه يكمن وراء مؤلف لوكاش «نظرية الرواية» الذي يعتبر من اهم اعماله الروائية خلال هذه الفترة أما المزاج الذي كان يسيطر على لوكاش ابان تأليفه الكتاب عام ١٩١٤ - ١٩١٥ فتمكن معرفته من خلال قراءة مقدمة الطبعة الالمانية. في هذه المقدمة المكتوبة في «بودابست» تموز عام «١٩٦٢» وبالرغم من النقد الذاتي المنبعث من التحسس بالواجب الذي يرد فيها، فان المقدمة لا تتبرأ كليا من المزاج العقلي الذي لجأ به لوكاش خلال تلك السنين الى عالم الفن هربا من عالم الواقع. وأي امل كان هناك في العالم السياسي اذا كانت الامبراطوريات الشرقية الثلاث (روسيا، والنمسا - هنغاريا والمانيا) قد انهزمت نتيجة الحرب هزيمة نكراء؟ «ولكن عندئذ يبرز السؤال التالي: من الذي سينقذنا من المدنية الغربية؟» وعندما وصف لوكاش فيما بعد موقفه خلال المرحلة الأولى من الحرب العالمية الأولى على هذا النحو، فانه زود قراءه بمفتاح السر لإعجابه الطويل بتوماس مان: وذلك باستدراك بدهي

هو ان مان Mann ببساطة لم يأبه لانتصار الغرب على الرايخ الالماني. كان يريد الانتصار لالمانيا! (انظر كتابه الصادر عام ١٩١٨ بعنوان: «تأملات رجل غير سياسي»).. واما لوكاش فانه اشمأز من البورجوازية الليبرالية ومما اعتبره بمثابة الانحطاط الغربي بدرجة لا تقل عن احتقار توماس مان لهما خلال تلك السنين، ولكنه بعكس مان لم يكن يجد من حاجة الى المانيا الفيلهلمينية إبّان حكم فيلهلم اوغليوم لها، ومن هنا فإن دراسته النقدية عام ١٩١٤ - ١٩١٥ قد عكست ما اسماه عام ١٩٦٢ «حالة من اليأس الدائم من وضع العالم ولم احصل الا عام ١٩١٧ فقط على اجوبة عن اسئلتي التي بدت حتى ذلك الوقت بدون جواب».

فالثورة الروسية بددت قلقه الميتافيزيقي بان اعطت جوابا علميا عن المشكلات النظرية التي استمالته للانسحاب والاعتكاف في قوقعة خاصة. ولقد كانت «نظرية الرواية» نتاجا للنظرة العقلية المرتبطة بما كان يعرف في اوساط اتباع ديلثاي بـ «تاريخ الروح» Geistesgeschichte فالحرب اوصلت الامور الى اوجها، لكن طابع الاشكالية (المعضلة) سبق له الوجود. وكما عبر لوكاش عن ذلك عام ١٩٦٢، حيث قال:

«لم يعد من الصعب اليوم ان نرى بوضوح قصور الطريقة التأويلية. لا بل انه يمكن للمرء ايضا ان يفهم مبررها التاريخي النسبي مقابل ضحالة وهزالة الوضعية الكانطية الجديدة وغيرها من الوضعيات، سواء في معالجتهاللشخصيات او المضامين التاريخية او في بنيانها الثقافي للبنى الفكرية (المنطق، علم الجمال الخ..). انني

افكر مثلا بما حققه ديلثاي من ابداع في مؤلفه «التجربة المعاشة والأدب» Das Erlebnis und die Dichtung (لايبزيغ، ١٩٠٥) وهو عمل بدا رائدا في استكشافه لأرض بكر. لقد بدا لنا هذا الحقل الجديد في تلك الايام وكأنه عالم عقلي من تأليفات اوطباقات فخمة سواء من الناحية النظرية او من الناحية التاريخية. لقد اخفقنا في رؤية مدى تجاوز هذه الطريقة للمدرسة الوضعية وعدم قيام افتراضاتها على اسس راسخة.. واصبح الأمر الشائع هو ان ننشىء مفاهيم عامة مركبة مبنية في معظم الحالات على مجرد ادراك حدسي لبعض الاتجاهات الخاصة بحركة او حقبة ما».

مع ذلك فلم يخل عمله المبكر من فائدة ترجى واستطاع لوكاش في عام ١٩٦٢ ان يرى مظهرا واحدا على الأقل كان يبعث بالأمل. فقد كان المؤلف الشاب في ذلك الحين يسير في اتجاه تطوير موقفه اللاحق:

«لقد سبق ان اشرنا الى ان المؤلف.. اصبح هيجليا. ان الممثلين الكبار للطريقة التأويلية يرتكزون الى اساس كانطي وهم لم يتحرروا بعد من الترتيبات الوضعية، وقبل اي شيء، من ديلثاي..

ان المحاولة لتجاوز اللاعقلانية الوضعية كانت تدل دائما على الاتجاه خطوة نحو اللاعقلانية لا سيما محاولة سيميل وديلثاي. صحيح ان نهضة هيجل كانت قد وقعت قبل سنين من وقوع الحرب... ولكن حدث هذا في مجال علم المنطق او النظرية العامة للعلوم. وعلى حد علمي فان «نظرية الرواية» Théorie des romans هو اول عمل في مجال التأويل لتطبيق الفلسفة الهيجلية على المشاكل الجمالية بشكل

واقعي.» يوحي البرفسور فيكتور زيتا Zitta في دراسته المعادية القاسية، ان لوكاش فشل في ان يصبح شاعرا (في هنغاريا قبل عام ١٩١٠) او فيلسوفا (في المانيا حوالى ١٩١٤) وانه ارتضى بان يصبح كاتبا وناقدا ادبيا نشيطا في مجال الحياة الفكرية حيث التفوق لا يجلب الشهرة بالضرورة وحيث لا يكون تحقيق الابداع والرفعة امراً سهلاً وحيث يكون النبوغ ملفعا بحقيقة انه ينبغي ان يخضع نفسه للتعليق والتحليل».

ودون الذهاب بعيدا فلعله من المهم القول انه بالرغم من العبقرية التي يزخر بها عمله الأول والتي لا مجال لانكارها، فانه فشل في اظهار نوع من القوة المنطقية الثابتة التي نجدها عند لاسك. وكتابه «الروح والاشكال» عمل يدل على القوة والألمعية من وضع شاب لا يتجاوز عمره ٢٥ عاما، وقد احرز بفضله مكانة بين النخبة من مثقفي هنغاريا، رغم ان الواقع ربما اشار الى ان الهنغاريين كانوا يعتبرون الشعر أرقى من المقالات الافلاطونية عن الفن. ومن الممكن جدا ان يكون لوكاش الذي ساعد على تنظيم مسرح «ثاليا» وهو ما يزال في سن المراهقة، قد احب ان يصبح شاعراً او روائياً قبل ان يتردد في أخذ دور الناقد. وهكذا حقق لنفسه منزلة فريدة حتى قبل ان يوجد منهجا فلسفيا خاصا به. وقد اعجب كتابه «نظرية الرواية» القراء على اختلاف اتجاهاتهم في ألمانيا هذه المرة ـ ونال صاحبه تقديرا خالدا من احد اهم روائيي المانيا العظام الا وهو توماس مان. ولكن، وكما لاحظ لوكاش بنفسه في السنوات اللاحقة، فقد كان هذا العمل من وضع شاب يافع ومأخوذ كما كان

يعتمد اساسا على افكار غير مبتكرة. وعندما نصل الى عمل يعتبر من اكثر اعمال لوكاش اثارة للجدل، «ألا وهو مجموعة المقالات التي ظهرت عام ١٩٢٣ باسم «التاريخ والوعي الطبقي» فاننا سنجد أن مضمونه الفلسفي البحت قد جاء من تفسيرات لاسك لكانط وفيخته وهيجل، وأن محتوياته السياسية والاقتصادية أخذت جملة عن لينين وروزا لوكسمبورغ (لم يكن التنافر بين الوطنيين الماركسيين واضحا بالنسبة اليه بعد) وقد تخلى فيها بعد عن نقده للديالكتيكية المادية التي نادى بها انجلز استجابة للنداءات الملحّة بـالالتزام الفكري.

ولا يمكن للمرء ان يغفل أيضا ان ديلثاي هو الذي فتح عيني لوكاش اصلا على الفارق الشاسع بين العلم الطبيعي والتاريخ: كون الحادثة التاريخية فريدة والحاجة الى ادراكها بجميع مظاهرها عن طريق القيام بمعايشتها من جديد، وهو فعل يمكن ان يكون له بعده الفكري بالاضافة الى بعده الجمالي. ان ملاحظة كل هذه الأمور تعني ان يسجل المرء ببساطة حقيقة مؤداها انه بالرغم من ان لوكاش ميز نفسه في سن مبكرة عن طريق تقديم اعمال لامعة فإنه ليس بوسع المرء ان يقول انه أظهر ذلك الضرب من الأصالة التي تتميزبها عادة حتى الأعمال غير الناضجة والصادرة من العباقرة. وكتاب «نظرية الرواية» لا يشذ عن القاعدة فهو مجرد قطعة من الكتاب تنم عن موهبة، ليس إلا.

الفصـــل الثانــي

غالباً ما تبدأ الدراسة النقدية المخصصة لكاتب ذي شأن برسم صورة شخصية لحياته ومن ثم التركيز على تحليل اعماله . بيد ان اي شخص يحاول تطبيق هذه العملية على لوكاش سرعان ما يكتشف ان هذه الطريقة ستخفق ، ذلك ان الحياة الخاصة ، حتى بالنسبة لاكثر الباحثين انطوائية وعزلة cloistered لا يمكن عزلها كلياً عن موقفه العام ، وعندما يكون الكاتب قيد الدرس قد امضى نصف قرن من حياته في خدمة قضية ثورية ، فإنه من الواضح ان التمييز بين « الحياة » و « الفكر » يصبح امراً يتعذر الدفاع عنه هنا . اضف الى ما سبق انه اذا كانت أهم أعمال هذا الكاتب كمنظِّر ، تتعلق بمواضيع تنبع من التحولات الحديثة في التاريخ الاوروبي منذ عام ١٩١٤ ، فكيف يمكن للمرء هنا ان يفصل النظرية عن التطبيق ؟ لقد شهد العقد الممتد من ١٩١٤ الى١٩٢٤ اعظم جيشين عرفتهما اوروبا منذ أيام نابليون ، من هنا ليس ثمة حاجة لاستخدام المنهج التاريخي في النظر الى اعمال لوكاش خلال تلك الفترة المليئة بالاحداث . مع ذلك فلا بد من

اجراء عملية تبسيط ضخمة ، وسوف نحاول ان نحلل تحول لوكاش من ذلك الافلاطوني المحدث الشاب عام ١٩١٤ الى المنظر الماركسي عام ١٩٢٤ ثم نعود في وقت لاحق لارتباطاته السياسية والتنظيمية ، بالمعنى الضيق للكلمة .

ان احدى المصاعب التي تواجهها اية دراسة للوكاش هي التعارض بين مكانته كمنظر في القارة الاوروبية وبين النظرة السائدة لاهميته بالنسبة للعالم الناطق باللغة الانكليزية . هذه ليست قضية سياسية وهي لا تتضمن احكاماً على مزايا كتاباته المبكرة أو كتاباته اللاحقة .

ثمة فكرة منتشرة نسبياً في الغرب يتعلل بها كل من محبيه المتهورين وبعض من نقاده ومفادها ان لوكاش كان خلال حياته منظراً في علم الجمال ، اما وجوده في الحزب الشيوعي فقد حدث لاسباب شخصية طارئة . يعود هذا الخطأ في فهم الفشل الناجم عن نظرة جادة الى نوع التنظير الذي ساهم على نحو معين بإيجاد الارضية للتفكير الاوروبي القاري .

فالاعتقاد بأن الأدب والفن لهما دلالة فقط لكونهما يجسدان الحقائق الأبدية والقيم المطلقة ، هو بالتأكيد اعتقاد مشترك بين المحافظين سياسياً والمحافظين دينياً في العديد من البلدان . بيد ان هذا النوع من المحافظة يتسم بالدفاع منذ وقت طويل . ومن بين أعدائه الفلاسفة من اصحاب النظرية النسبية الى جانب الكتّاب الانطباعيين الذين تمنعوا عن منح علم الجمال مرتبة النظرية الأصيلة المرتبطة برؤية حقائق مستقلة عن مكانة الناقد

الشخصية . ان ما يسمى الآن بالتجريبية يتمشى مع الليبرالية في السياسة والنزعة الذاتية Subjectivism ، في علم الأخلاق ، فالفن هو مبررها الخاص ، واما علم الجمال فهو ببساطة ، التحليل الوصفي لما يشكل الاستقلالية الذاتية للفن .

وهنا تبرز الحاجة الى القول ـ بغض النظر عن المواقف السياسية على اختلاف نزعاتها الايديولوجية ـ من الشيوعية الى الفاشية ـ بأن العالم الانكلو ـ اميركي كان يبدو لأوروبا ، وحسب التعبير الشائع حالياً وحدة متكاملة لا مركز لها ، ذات حضارة مادية فارغة المحتوى ، تفتقر لاي شيء يستحق ان يسمى فلسفة ، بمعنى آخر انها كانت تفتقر لأي نوع من التفكير الفهمي conceptual الذي يحاول ان يجعل من الحياة ، ككل ، معنى أو للنظام الاجتماعي الذي تكون الثقافة جزءاً منه . حسب وجهة النظر هذه ان ما تنادي به الفلسفة في البلاد الناطقة بالانكليزية ليس سوى تمرين مسلٍ في التحليل المنطقي في احسن الأحوال ولعبة اكاديمية في أسوئها . اما ردة الفعل المشتركة للفلاسفة الاميركيين والبريطانيين لهذا النوع من النقد فهي رفض للميتافيزيقا باعتبارها هراء قديماً ورفض للفلسفة الهيجلية باعتبارها دجلاً وشعوذة ، ورفض للماركسية باعتبارها نتاجاً أو ثمرة غير شرعية للهيجلية .

ان احدى نتائج حالة عدم الفهم المتبادل هذه تفرض على اي شخص يحاول تفسير اعمال جورج لوكاش للجمهور الناطق بالانكليزية ان يؤكد على امور تعتبر من البدهيات خارج العالم الانكليزي ـ الاميركي ، ومن هذه الامور تحديداً انه لا يمكن

للعلم ان يحتل نفس المكانة التي احتلتها الميتافيزيقية العظمى . فاذا ماتت هذه النظم فليس ثمة امل في احلال التحليل المنطقي أو اللغوي مكانها . ولكن تترتب على ذلك نتيجة ابعد وهي ان الفراغ لا يمكن له ان يملأ بدراسة الأدب . بيد ان وجوب حدوث هذه المحاولة اليائسة فعلاً منذ نصف قرن يشهد على حقيقة انه حتى في ظل حضارة مغتربة عن ماضيها فإن الناس لا يحيون بعبادة الحقائق وحدها . وبالرغم من النجاح العظيم في رفع مكانة النقد الادبي الى مستوى التنظير الاصيل ، فمن الواضح انه ليس في وسع احد ان يقوم بدور الجمع المفاهيمي بالمعنى الهيجلي الماركسي للكلمة (أو بالمعنى الكيركجاردي أو البارثي Barthian نسبة الى اللاهوتي الجدلي كارل بارث) . ليس بوسع الأدب أو الفن ان يحتلا مكانة الفلسفة أو الدين بالرغم من انه باستطاعتهما ان ينفذا الى قيم كل منهما أو احداهما . كان هذا الاكتشاف بالتحديد هو الذي انزل الفتى لوكاش من برجه العاجي وان كان قد سلك هذا المنحى بطريق الصدفة ، بمعنى انه مسلك قد تقرر بحكم الاوضاع السياسية في بلد لوكاش - هنغاريا - وبالدور الاساسي لطبقة الانتلجنسيا التي ما كان بوسعها ان تختار ، ولأسباب بديهية ، اللاعقلانية الرومانسية التي اعتنقها اليمين السياسي .

ونحن بطرحنا السياسة جانباً لمعالجة أمر آخر ، نكون قد تابعنا تطور لوكاش الخاص بشكل منطقي لأنه لم يصبح لينينيا بمعنى الكلمة إلا في عام ١٩٢٤ ، وحتى ذلك التاريخ كان يسعى لأن يجمع بين موقف اليسار المغالي في التطرف سياسياً (بلغة

الشيوعيين) وبين تفسيره الشخصي للماركسية ، الذي ظهر بشكل أخّاذ في مجموعة مقالاته عام ١٩٢٣ . وبعد ان وضع كتيباً صغيراً عن مؤسس البلشفية بمناسبة وفاة لينين في يناير / كانون الثاني عام ١٩٢٤ لاحت تباشير تراجع تكتيكي عن منصب صعب المنال ، مما مكن لوكاش من الاحتفاظ بموقفه الرسمي داخل الحركة الشيوعية العالمية . بيد ان ما يهمنا الآن هو تطور لوكاش الفكري خلال الاعوام الممتدة من ١٩٢١ الى ١٩٢٤ . فإذا حملنا هذا التحليل لمناقشة مواقفه السياسية بعد العام ١٩١٩ بشكل منفصل ، فإن الخطأ ينبغي ان يعزى ، جزئياً، الى لوكاش ثـم ان لوكاش ، بعد استيعابه لماركس عن طريق هيجل ومن ثم لينين بتخليه عن مذهبه الأصيل الذي تضمنه كتابه « التاريخ والوعي الطبقي » استطاع ان يغير الصورة التي رسمها لنفسه بشكل كلي في العام ١٩٢٤ . والحقيقة ان تحوله الى اللينينية لم يلغ التزامه بعدد من الحقائق عن التصورات العامة التي كان يحملها قبل عام ١٩١٤ حول طبيعة الكون ومصير الانسان . فقد كانت هذه الحقائق بالنسبة اليه مطلقة وموضوعية وغير تجريبية . وصحة هذه الحقائق لا يضمنها العلم بالمعنى الوصفي للكلمة ولا الايمان اللاعقلاني الاعمى ، وانما عن طريق النفاذ الى الطبيعة الاختبارية للحقيقة ، وهي عملية فكرية قدمت فلسفة هيجل نموذجاً عنها .

لا شك ان هذا الكلام سيبدو وكأنه ضرب من التفخيم الزائد للشخص المؤمن بالتفكير المنطقي البسيط في العالم الناطق بالانكليزية . لذلك ينبغي التأكيد على انه من وجهة نظر المفكرين من وسط اوروبا في تلك الحقبة ـ من انصار نيتشه والهيجليين مروراً بشبنغلر وهيدجر وانتهاء

بلوكاش ، فإن التفكير المنطقي البسيط بالحقيقة التجريبية كان هو العدو . وبالطبع كان هناك تراكم هائل من التفكير الوضعي في العلوم الطبيعية يبدو وكأنه قد تأثر بالأزمة التي مرت بها العلوم الانسانية وكانت توجد اسماء ذات نفوذ اكثرها شهرة ماكس فيبر ـ دأبت على مناصرة التفريق الكانطي الجديد بين التفكير والاستنتاج العلمي وبين الميتافيزيقيا . وبالمثال كان هناك فلاسفة بارزون من الكانطيين الجدد والوضعيين بين صفوف الحزب الديموقراطي الاشتراكي الالماني والذي احتفظ بمناصب مهمة خلال العقد الذي تلا الانهيار في عام ١٩١٨ . بيد ان هذه المناصب الفكرية سبق ان تعرضت للاهتزاز قبل عام ١٩١٤ ، وبعد عام ١٩١٨ واجهت حملات عنيفة من جميع الفئات السياسية . وعندما وقف لوكاش الى جانب القضية الثورية كان ذلك بمثابة التزام سياسي جاء متوافقاً مع قناعاته الفلسفية التي كان يتلمس طريقه نحوها طيلة سنوات قبل ان تغير الثورة الروسية معالم القارة الاوروبية .

لقد ظهر لوكاش اصلاً على مسرح الأحداث في وقت عمّ فيه الاعتقاد الشائع بأن الخيار الوحيد المفتوح امام الشخص الذي يرفض الميتافيزيقا التقليدية والايمان الديني يكمن بين وضعية العلم التجريبي و « المذهب الحيوي »(*) الذي نادى به فلاسفة

(*) يستخدم مؤلف الكتاب لفظة « الحيوية » أو المذهب الحيوي Vitalism مقابل اللفظة الالمانية Lebensphilosophie ومعناها فلسفة الحياة أو الفلسفة الحياتية . وهي مدرسة قائمة في الفكر الفلسفي الالماني الحديث . بيد ان عبارة فلسفة الحياة قد تنطوي على شيء من الالتباس أو تثير لدى القارىء دلالة شخصية مؤداها فلسفة المرء أو الفرد في الحياة . وهذا ليس هو المقصود بها .

لاعقلانيون ، ومن هنا كان الافتتان بما حققه ديلثاي في حقل العلم العقلي Geisteswissenschaft وهو اصطلاح يصعب ترجمته لكون المقطع الأول يحمل نبرة ميتافيزيقية تترجم بصورة غير ملائمة « بالعقل » او « الروح »: ان ما كان يعنيه الاصطلاح Geisteswissenschaft هو التطابق بين عقل المفكر التأملي والعقل العام Minde الذي تظهر تجلياته مبثوثة امامنا في التاريخ ، وبهذا المعنى فإن مذهب التأويل أو التفسير من النمط الذي تقدم به ديلثاي يمكن اعتباره محاولة لإعطاء الفلسفة ، مرة اخرى ، مركز الصدارة الذي شغلته زمان هيجل (باستثناء نظرية هيجل الروحية في الوجود والتي رفضها ديلثاي بوصفه مخلصاً في هذا المقام لميراثه النيوكانطي (الكانطي الجديد) معتبراً إياها نظرية اعتباطية وتأملية) ، والشيء الذي ميّز بين علم العقل أو الروح وعلم الطبيعة Neturwissenschaft هو الطريقة التي انتهجها كل من هذين العلمين بشكل لا يقل عن موضوعيها . فاذا كانت العلوم الطبيعية تعمل وفقاً للتمييز القاطع بين الموضوع والذات ، العقل والمادة ، فإن « علم الروح » لا شك سيكون علمًا تأملياً واستبطانياً ، وموضوعه سيكون العالم الذي خلقته الروح الانسانية أو العقل البشري ، وقد رد هذا التمييز الى فيكو Vico ورد اليه ايضاً الفكرة المرتبطة به والتي قوامها انه يوجد أو يمكن ان يوجد علم خاص بالعقل يكون مرآة للروح وسجلاً لتطور الانسان في آن واحد . وقد قام هيجل بدمج هذه الافتراضات الميتافيزيقية في صلب نظام وخيم ، حيث فقد هذا النظام سلطته عند الفترة المتأخرة من القرن التاسع عشر بعد ان تعرض لنيران

الهجوم من جانب المؤرخين الوضعيين وأقرانهم علماء الاجتماع وعلماء الانسان (الانثروبولوجيين) . وعندما قام الإحياء النيوكانطي (الكانطي الجديد) في سبعينات القرن الثامن عشر بإعادة الاعتبار للفلسفة فإنما كان ذلك على اساس من الفهم بأن الفيلسوف لن يضع الملامة بعد ذلك التاريخ على العلماء لامور استطاع هو ان يتبصر بها . فالفلسفة اذن اصبحت مرادفة ، واقعياً ، لمنطق العلم وهو وضع مشترك بين الكانطيين الجدد والماركسيين الوضعيين امثال انجلز .

وبعد عام ١٩٠٠ ، ادى القلق المتزايد حول الانفصال الراديكالي بين العلم والفلسفة في ارقى معانيها Weltanshaung (اي كنظرة شاملة الى الكون والعالم) الى اعادة الاهتمام بهيجل ، وقد ساهم ديلثاي بقوة في هذا الصدد ، فأعد دراسة نقدية في غاية العمق حول كتابات هيجل الأولى ، وبهذا العمل أحدث الشرخ النهائي في ارهاصاته أو (بداياته) الوضعية الشخصية ، وتوج في الوقت ذاته عملاً رائعاً يمكن القول انه تركز حول فكرة واحدة : إعادة تشكيل الوحدة بين النظرية والتطبيق ، وبين المنطق والأخلاق، وبين التجريبي والاستشراقي Transcendental ، تلك الوحدة التي مزقها كانط شر تمزيق . ان دراسة التاريخ تميط اللثام عن الطبيعة الاساسية للانسان كما هي كائنة في التجربة الانسانية كلها ، والمؤرخ دخل الى حياة الاجيال السابقة بمعايشة افكارها وأعمارها في ذهنه هو . ان « علم الروح » و « فلسفة الحياة » كانا بمثابة مظهرين لعملية واحدة لا تعرف الكلل عن رؤية

تتخطى التجريبية في النظر الى الحياة والتاريخ العالمي بكليتـه المتحركة .

ويمكن استنتاج الأثر الناجم عن فصل الكانطية الجديدة بين العقل النظري والعقل العملي في لوكاش الشاب (وفي غيره) من خلال الفقرة الافتتاحية لكتابه « نظرية الرواية » The Theory of The Novel : حيث يقول :

« مباركة هي الأوقات عندما تكون السماوات طريقاً ترشد خطوطها الى السبيل التي ينبغي اتباعها ، وتضيء نجومها الممرات التي يمكن سلوكها . . ان العالم واسع ، ومع ذلك فهو يشبه مقام المرء ذاته ، فالنار المشتعلة في الروح مشتركة في جوهر مع النجوم . . . يقول نوفاليس Novalis حقاً ان الفلسفة هي الحنين ، انها الرغبة في ان يكون المرء ببيته في كل مكان . من هنا فإن الفلسفة ، كشكل من اشكال الوجود Lebensform هي دوماً دلالة على الانفصال أو شرخ بين ما هو باطني وما هو ظاهري ، وهي دلالة على التفاوت الجوهري بين الأنا والعالم ودلالة على انعدام التطابق بين الروح والفعل » .

ان هذه الملاحظة العاطفية التي أبداها شاب يافع تثقف وتربى على افكار الرمزيين عند نهاية القرن ، اظهرت واخفت ، في الوقت نفسه معضلة روحية حقيقية . وبعكس ديلثاي الذي نشأ في بيئة كالفينية ودرس اللاهوت البروتستانتي قبل توجهه الى الفلسفة ، فإن لوكاش لم تكن له خلفية دينية أو صلة غريزية بجانب من الفلسفة المثالية الميتافيزيقية الألمانية ، أوالتي سادت في القرن التاسع

عشر ، وهي فلسفة يمكن ان توصف بحق بأنها مذهب علماني . لقد اصبح تعبيره عن يأسه الوجودي غير ممكن إلا من خلال الغنائية الشعرية التي غذاها هولدرلين ـ وهو شاعر صديق لهيجل مات ، لسوء الحظ ، مجنوناً . كانت الحقائق التي ينشدها لوكاش حتى عام ١٩١٧ لا تتناسب بطبيعتها مع شكل اكثر واقعية من اشكال التعبير . من هنا فإن تبنيه اللاحق للأسلوب التعليمي المصاغ على غرار أسلوب هيجل الحازم كان القصد منه اخفاء الترابط الكلي ، بيد ان النقاد استطاعوا ان يدركوا الرباط بين لوكاش الشاب اليافع ، ولوكاش الناضج المتمرس في ميدان ، له اهمية فائقة لديه ، هو ميدان علم الجمال . وقد سبق لأحد الذين راجعوا كتاب « الروح والأشكال » ان اظهر في العام ١٩١٢ بأن لوكاش يعتبر ، بصورة اساسية ، كاتباً رمزياً . فقد كان يهدف من اسئلته الأولى حول التكنيك الشعري الى القيام بطرح فلسفة للفن يحدد فيها بدقة المسائل النهائية في الحياة .

وكان هذا الأسلوب شائعاً في الأوساط التي انتقل اليها . وقد كان يروج لذلك منذ زمن بعيد ، اتباع غوته الروحانيون الأكثر وعياً لأنفسهم ومن أعظمهم توماس مان.Thomas Mann

ان ما يحتاج هنا الى التأكيد هو ان لوكاش انتقل الى الهيجلية في هذه السنوات لنفس الأسباب التي دفعت ديلثاي للتخلي عن الكانطية الجديدة التي سادت العالم الاكاديمي الالماني قبل نشوب الحرب الأولى ، والفارق الاساسي هو ان ديلثاي كان متعمقاً في ثقافة الطبقة الوسطى الالمانية البروتستانتية التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر ، بينما كان لوكاش يشعر بأنه بلا هدف روحي في

وقت كانت فيه الحضارة البورجوازية ، وهي الحضارة الوحيدة التي يفهمها ويقدرها ، تمر في طور الانحلال . وبعد ان اظهر نفسه بمظهر الخليفة الماركسي لديلثاي ـ وهو أمر لم يدّعِه ولكن أعماله تشهد على ذلك ـ غدا لوكاش وريثاً للمسائل المستعصية في فلسفة علم العقل والروح Geistwissenschaft . كيف يمكن استخراج اليقينيات الميتافيزيقية من دراسة التاريخ اذا كان البحث التاريخي ينبثق من الاعتراف بأن لكل ثقافة معاييرها الخاصة التي دخلت في عملية ادراك الواقع ؟

وبالنسبة لديلثاي كان الجواب موجوداً في فعل الايمان ، وهو ليس الايمان اللاهوتي الذي كان سائداً ايام شبابه ، ولكنه الايمان بتلك الوجدانية الغامضة التي آمن بها كل من هردر ، وغوته ، وشلينغ ، وشيلر ماركر وهمبولدت . لقد تركز علم العقل Geisteswissenschaft على القيام بعملية فهم أو استيعاب Verstehen للتجربة المعاشة يتخطى فيها المفكر الفرد المستوى السيكولوجي ويعيد صياغة المعنى الموضوعي لعالم الروح كما ظهر في حضارات قومية مختلفة بفنونها وعلومها وفلسفاتها ودياناتها المميزة .

ان هذه التجليات الموضوعية للروح والتي تشكل بمجموعها العالم الانساني ، كانت دائمة الحركة ولكنها مع ذلك كانت تمثل عالماً يتخطى التاريخ ويعلو عليه ، وهو عالم في متناول العقل التأملي . وصف لوكاش عام ١٩٦٢ وفقاً لهذا المنظور كتابه المنشور عام ١٩١٦ « نظريةالرواية » بأنه « نموذج لعلم العقل » ، ومنذ ذلك الحين تبنى لوكاش نظرية ديلثاي في التفسير أو التأويل . ان

هذه الطريقة التي شرحها ديلثاي باختصار في مقال له يعود الى العام ١٩٠٠ تشكل محاولة لاحلال التفسير المنتظم مكان الطريقة السيكولوجية في فهم البنى الرمزية التي تواجه المؤرخ في مجابهته لإبداعات العقل أو الروح ، ولكن حيث اكتفى ديلثاي بتقديم علم للنماذج Typology يشتمل على النظرات الى العالم وهي نظرات متأصلة بالتحليل الاخير في بنى نفسية ثابتة ، فإن لوكاش قد رجع قاطعاً الطريق كلها الى هيجل . لقد حدد ديلثاي ثلاثة أنواع أو انماط ونماذج من التصورات Wletanschaung ، التصور الأول هو جماليّ - تأملي (يعرف ايضاً « بالمثالية الموضوعية ») والثاني فعال ، تمثله « المثالية الذاتية » عند فيخته والثالث التصور الواقعي الطبيعي الذي يماثله في عصره النزعة الوضعيـة لدى اوغست كونت وهربرت وسبنسر . ان هذا التمييز هو تمييز كانطي وليس هيجلياً ، لأنه قصد أن يصور نماذج دائمة للعقل البشري . وقد احيا لوكاش ، بتجاوزه لهذا التمييز ، الفكرة الهيجلية ، عملية التنشيط الذاتي ، الكامنة في الحركة الجدلية للشخصية : في مقدمة كتاب « نظرية الرواية » حيث نجد توضيحاً مسهباً لهذه النقطة يقول فيه :

« بالطبع ثمة نسبية تاريخية وضعية وهي تلك النسبيـة التي صهرها شبنغلر خلال سنوات الحرب بالذات مع النزعات المستمدة من علم العقل ، Geisteswissenschaft لكي يصل الى تأريخ حاسم لكل المقولات رافضاً الاعتراف بصحة القضايا التي تتجاوز التاريخ ، سواء كانت قضايا جمالية أو خلقية ، أو منطقية . ان

مؤلف نظرية الرواية Théorie des Romans لا يذهب بعيداً الى هذا الحد ، بل انه كان يبحث عن الديالكتيك التاريخي الشامل للأدب - المتأصل في صلب المقولات الجمالية ، وفي صلب الأشكال الأدبية - والذي سوف يميل نحو علاقات داخلية بين المقولات والتاريخ ، اكثر جوهرية من تلك التي وجدها في هيجل . انه كان يحاول ان يدرك شيئاً ثابتاً وسط التغير أو تحولاً داخلياً ضمن استمرارية الجوهر وديمومته .

ولعل تفسير لوكاش لإرهاصاته الفكرية حقق بهذه الطريقة نقطة أبعد ، قابلة للنقاش ، وهي ان هيجليته الاصلية قد استبق توقعها ديلثاي ، لأنها استندت الى قول فيكو المأثور بأن الرجال يمكنهم استيعاب ما صنعوه بانفسهم ليس إلا(*) . لقد استشهد ديلثاي بفيكو ضد ديكارت والطريقة الديكارتية بشكل عام ، وبذلك احيا مبدأ في البحث مشتركاً بين هيجل وماركس (وباستثناء فارق مهم هو ان هيجل وفيكو والسكولاستينيين من قبلهما اعطوا فلسفة التاريخ وظيفة استعادية تنظر الى الاحداث بعد وقوعها Retrospective اي ان العقل يدرس المنطق الباطني للعملية التاريخية بعد ان تكون الواقعة قد حدثت) . وبحسب وجهة نظر فيكو ، وهو ما يزال متأصلاً في طقس عبادة القديم ، فإن منطق التاريخ يتجلى من خلال حركة دائرية من التقدم (السير الى الامام) والارتداد (الفعل وردة الفعل) Corso and Ricorso. أما

(*) Verum et Factum convertuntr ترجمة الحقيقي والواقعي والتوجه صوبهما واخذهما بعين الاعتبار .

بالنسبة لأتباع المذهب الديكارتي في القرن الثامن عشر وعلى رأسهم تورغو Turgot وكوندورسيه Condorcet فإن التاريخ يـرمز الى التقدم الخطي المطرد نحو حالة من الكمال في هذه الدنيا . لقد قام هيغل بالتوفيق بين طريقة فيكو وعقيدة عصر التنوير ، بيد انه في الوقت الذي يتخلى فيه عن الايمان بفكرة الحركة الدائرية ، فإنه يبقى مؤمناً بأن الروح تبلغ حالة الوعي الذاتي في الفلسفة فقط بعد ان تكون حقبة ما قد وصلت الى نهايتها : وكما قال هيغل في مقدمة « فلسفة الحق » فإن بومة مينرفا تنطلق في طيرانها عند الغسق . أو لنستشهد بالوصف الأوضح والذي اطلقه ماركس على طريقة هيجل وأسلوبه : « الفيلسوف يأتي متأخراً ، بعد ان تقع الواقعة » . ان ما يميز بين الهيجليين الشبان في عام ١٨٤٠ وبين هيجل هو ايمانهم بأن التاريخ يمكن ان يصنع بشكل واعٍ وليس اعتباطاً (بالطبع لقد كان البشر دوماً يصنعون ـ بشكـل من الاشكال تاريخهم ، مع انهم لا يدركون ذلك) .

لم يكن مـاركس المفكر الكبير الـوحيد في زمانـه الـذي اختلف مع هيجل حول هذه المسألة ، بيد ان الشرخ الذي احدثه اكتسب اهمية عالمية ، لأنه دمج النظرية بالتطبيق لحركة استهدفت تغيير العالم . وبعد استعادته لهذا البعد في تفكير ماركس وهو بعدٌ أهمله أتباع ماركس والذي لم يكد يكون معروفاً لدى الاشتراكية الاوروبية ونظرتها التطورية عام ١٩١٤ ، اتبع لوكاش منطقاً سبق له ان ردد ذكره في كتابه « اطروحات أو موضوعات حول فيورباخ » Theses on Feuerbach .

لماذا اذن كان لا بد من حدوث الحـرب العالميـة الأولى ،

وبتحديد اكثر ، الثورة الروسية ، كي يتسنى تحطيم سيادة الفلسفة العقلية التأملية Geisteswissenschaft ؟ ان مقدمة كتاب « نظرية الرواية » التي ظهرت في طبعة عام ١٩٦٢ تشير الى هذه النقطة المثيرة بالقول : ان لوكاش كان خلال تلك السنوات « متأثراً بشكل خاص بجورج سوريل » . ولقد لفت جورج سوريل (١٨٤٧ ـ ١٩٢٢) انتباه الجمهور بكتابه « تأملات في العنف » Reflexions sur la Violence الذي ضمنه انتقاداته اللاذعة لضحالة البورجوازية الليبرالية والتي جاءت إبان موجة الاستخفاف الشائعة بالتقدم المادي . هنا نصادف الغموض الخاص للمصطلح الالماني Geist والذي يمكن ان يعني « العقل » أو « الروح » ، فاذا اخذنا بالمعنى اللاحق للمصطلح ، فالعقل لا يختلف عن الحقيقة المادية ، وإنما يسمو عليها .

وكان من المعروف لدى المثقفين الالمان قبل عام ١٩١٤ من ذوي الميول المحافظة والرومانسية ان الكلمة الالمانية ثقافة أو حضارة Kultur تختلف عن Civilization أو « المدنية » السائدة في غرب اوروبا ، بإعطائها الروح صفة الأولوية في صنع التاريخ ، بيد أن الروح كانت تأملية اكثر من كونها فاعلة . لذلك فإن استخدام ديلثاي للمصطلح تاريخ العقل أو الروح قد يصور دون شك (روح العصر) كما بدت في كل الآداب والعلوم ، ولكن المؤرخ لا يستطيع ان ينقل الحقيقة كما بدت في عصره . ان التاريخ الفكري(*) بإمكانه ـ وهو يقوم بذلك فعلاً ـ صياغة

(*) التاريخ الفكري أو الثقافي هو ترجمة ممكنة لاصطلاح Geistyeschite

التموضعات المختلفة للروح ابتداء من الوعي وحتى الأساليب والأزياء المتغيرةفي الفن ، ولكنه عاجز عن تغيير الظروف المادية التي أوجدت ثقافة معينة « وروحها السائدة » .

وبالنسبة لافتراضات ديلثاي التي تتعلق بمسار الأحداث منذ قيام عصر النهضة بتحرير العقل البشري من ظلمة اللاهوت ، فإن هذا التباعد أو الانفصال بين التاريخ وكتابة التاريخ لا يشكل عقبة تذكر . فقد كان ديلثاي ليبرالياً الى حدّ الايمان بأن التقدم كان حقيقياً ، فالبشرية اخذت تعي بالتدريج وحدتها الأساسية ، وقد عبرت عن وعيها الذاتي بإدراكها المستمر للعملية التي تسمى التاريخ . « ان الوعي التاريخي يحطم آخر القيود ، تلك التي لم تستطع الفلسفة والعلوم الطبيعية أبداً تحطيمها ، وبذلك يصبح الإنسان حراً بشكل كامل الآن » . فالتاريخ الروحي أو الفكري ، باعتباره التاريخ الجامع للروح الانسانية ، يقدم الدليل على ان البشرية بلغت سن الرشد . ان النسبية التي يتضمنها هذا النوع من الوعي لم تصبح مشكلة للمفكرين الألمان إلا بعد ان توارى ديلثاي عن مسرح الأحداث . ان الانماط التي صنفها للنظرات الى العالم اشبعت توقه الخاص الى اليقين : « بوسعنا ان نعرف ماهية الروح البشرية من خلال التاريخ فقط . ان هذا الوعي الذاتي التاريخي يسمح لنا بتكوين نظرية منهجية عن الإنسان » وبناء على هذا الافتراض الهادىء، فإن النمط التأملي في التفكير لم يكن ملائماً للمؤرخ فحسب ، بل إنه يؤكد صحة رأي الفيلسوف ايضاً . ان « التاريخية » Historicism أوجدت تبريراً لنفسها عن طريق تعريتها للبنى الملازمة للنفس البشرية . وقد انعكست صورة هذه البنى في

تاريخ الفلسفة حيث كانت أنماط التفكير الأساسية نفسها في حالة صراع داخلي . فثمة توحد بين هذه الطريقة وبين بصيرة هيجل ، بيد ان مبدأ الصيرورة الهيجلي كان ناقصاً . ومن جهة أخرى كان ديلثاي يشارك هيجل في طمأنينته ونزعته الى السكينة والهدوء Quietism فقد استشف أو ادرك منطق هذه العملية وكان هذا كافياً بالنسبة اليه .

اما بالنسبة لافتراضات هيجل (الناسجة على منوال افلاطوني)، فإن الحركة الدائرية للعقل ،عندما تقوم بخلق العالم أولاً ثم تصبح واعية لذاتها في الفلسفة ، فإنها تسمح بنمط واحد من التفكير هو النمط التأملي . ولننظر كيف يصفها هيجل في عام ١٨٠٧ بقوة لا مثيل لها ، واعتقاد جازم في الفقرة الختامية من كتابه « فينومينولوجية الروح » :

« ان الهدف ، وهو المعرفة المطلقة أو معرفة الروح لذاتها كروح ، يجد طريقه في تذكر الأشكال الروحية كما هي في حقيقتها ، وكما تقوم بإتمام تنظيم مملكتها الروحية . ان المحافظة عليها ، اذا ما نظر اليها من زاوية وجودها الحر الذي يظهر بشكل طارىء على صورة الإمكان أو الجواز ، هو التاريخ ، واذا ما نظر اليها من زاوية تنظيمها الفكري المدرك فهي العلم بالطرق التي تظهر فيها المعرفة . وكلاهما معاً ، أو التاريخ في فهمنا الفكري لهذا التاريخ ، يؤلفان مرة واحدة التذكر للروح المطلقة وجلجلتها ، دافع عرشها وحقيقته ويقينيته وبدون ذلك فإنه فاقد الحياة موحش ومنبوذ فقط . .

« كأس هذا العالم من الأرواح
يطفو منها الزبد حاملاً الى الله لانهايته »

هذا البيت من الشعر هو اقتباس عن أبيات الشاعر شيلر الذائعة الصيت « من كأس مملكة الروح بأكملها ، تطفح اللانهاية أمام ناظريه » ، وهي الأبيات التي عالجها مؤرخو الفلسفة معتبريها صياغة ، رومنطيقية للموضوعية التي تتناولها محاورة أفلاطون وعنوانها « طيماوس » . وبينما نجد هيغل قد تصرف بعض الشيء في نص شيلر، فجاءت صياغته على النحو الآتي : « من كأس مملكة الروح هذه ، تطفح امامه لانهائيته » ، فإنه حافظ على روح القول الوارد على لسان الشاعر : فالإله الذي يبدع عالماً من الأرواح المتناهية ، هو إله غير كافٍ بالنسبة لذاته . ويقبع سر المثالية الألمانية في القناعة الراسخة والقائلة بأن جوهر هذا الإله لا يمكن فهمه بواسطة الروح البشرية . لقد أدى هذا المعتقد الباطني غرضه خلال القرن التاسع عشر ، ولكن ، بينما استهوت الفنانين رسالته الافلاطونية ، فهي قد اخفقت بحكم الضرورة في ان تقيم اتصالاً مع الباعث (الحافز) النقدي الناشىء عن انهيار النزعة الجمالية التأملية في العام ١٩١٤ :

« لهذا السبب ، فإن العصر الحاضر في « نظرية الرواية » لا يتسم طابعه بعبارات هيجلية ، بل يوصف ـ لكي نستخدم صياغة فيخته ـ بأنه « عصر من الانحطاط الكلي » . لكن هذه التشاؤمية المشوبة بالأخلاق نحو التاريخ لم تؤشر الى تراجع عام عن هيجل وتوجه صوب فيخته ، بل كانت تمثل التوجه نحو حقن الدياالكتيك

الهيجلي للتاريخ بأفكار كيركغارد ، لقد امتلك كيركغارد بالنسبة لمؤلف « نظرية الرواية » مغزى بارزاً ، فقد قام خلال السنوات التي قضاها في هايدلبرغ عشية الحرب ، بالعمل على دراسة تتناول نقد كيركغارد لهيجل ، لكنها لم تنجز أبداً . واذا كنا نذكر هذه الوقائع هنا ، فليس مردّ هذا اسباباً تتعلق بالسيرة الحياتية ، بل ان الهدف هو التركيز على نزعة اتخذت أهمية فيما بعد في الفكر الالماني . ومن الصحيح ان التأثير المباشر الذي مارسه كيركغارد أدى الى قيام وجودية هيدغر وياسبرز ، وبالتالي الى عداء مكشوف تقريباً نحو هيجل . لكن يجب علينا ألا ننسى بأن النهضة الهيجلية كانت في حد ذاتها تعمل بنشاط وقوة في محاولتها الرامية الى تقديم هيجل وكأنه قد وقف على مقربة من اللاعقلانية . هذه النزعة يمكن ملاحظتها سابقاً في دراسات ديلثاي عن هيجل الشاب .

١٠ كاش ، ١٩٦٢) .

ـ هذا الوصف الذاتي المميز اختلافاً بارز المعالم عن مقالة
اتية وعنوانها « طريقي الى ماركس » Mein Weg Zu
مي المقالة التي اسهم بها لوكاش عام ١٩٣٣ في الدورية
المي » (International Literatur) . فقد
لوكاش الشاب ، بعد ان قرأ « البيان
ذاً في المدرسة الثانوية (الجيمنازيوم) ،
، لقراءة كراريس ماركس السياسية ،
ن يقرأ المجلد الأول من كتاب « رأس
فإن اهتداءه الى الاشتراكية لم يترك أثراً
، وصفها لوكاش عام ١٩٣٣ كما يلي :

« وكما هو من الطبيعي لا غير ، في حال مثقف بورجوازي ، فإن هذا التأثير انحصر في الاقتصاد ولا سيما في « علم الاجتماع » . اما الفلسفة المادية ـ ولم أقم حينذاك أي تمييز بين المادية الجدلية والمادية غير الجدلية ـ فقد اعتبرتها قديمة العهد كلياً بالنسبة الى نظرية المعرفة . والعقيدة الكانطية الجديدة عن « تحايث الوعي او الوجدان » تطابقت خير تطابق مع موقعي الطبقي ونظرتي الى العالم حينذاك . فلم أعمد الى اخضاعها لأي ضرب من ضروب التفحص النقدي ، وقبلتها دون اعتراض معتبراً اياها بمثابة نقطة البداية لأي نوع من انواع البحث في نظرية المعرفة . حقاً ، لقد كانت لديّ تحفظات بشأن المثالية الذاتية المتطرفة (بالنسبة لكل من مدرسة ماربورغ الكانطية الجديدة وفلسفة ارنست ماخ) ، وذلك لأنني لم أفقه كيف ان مسألة الواقع يمكن معالجتها ببساطة كمقولة محايثة من مقولات الوعي (الوجدان) . لكن هذا الأمر لم يقدني الى نتائج مادية ، بل قادني بالأحرى الى تلك المدارس الفلسفية التي حاولت ان تحل هذه المشكلة بطريقة نسبية لاعقلانية ، حيث كانت تميل بين الحين والحين نحو الصوفية (فيندلباند ريكرت ، سيميل وديلثاي) . ان تأثير « سيميل » ، الذي تتلمذت عليه آنذاك ، قد اتاح لي ان ادمج تلك العناصر من تفكير ماركس التي كنت قد استوعبتها خلال هذه الفترة دمجاً متكاملاً في مثل تلك النظرة الشاملة الى الكون والعالم » .

وفي تفسيره على هذا النحو بأن لامبالاته حيال الفلسفة المادية كانت شيئاً طبيعياً لا غير بالنسبة لمثقف بورجوازي شاب ينتمي الى حقبة ما قبل ١٩١٤ لا بد وأن لوكاش قد حير تلك الفئة من بين

قرائه الذين تذكروا انه في العام ١٩٢٣ (بعد انقضاء اربع سنوات على الدور الرئيسي الذي لعبه في الثورة المجرية المجهضة عام ١٩١٩) لم يكن على استعداد بعد لأن يأخذ « المادية الجدلية » بعين الجد . وربما اعترت البعض منهم الدهشة والعجب حين رأوه على تلك الدرجة من السهولة بالنسبة لفتى هو سليل البورجوازية الرفيعة قبل العام ١٩١٤ يتقبل العقيدة الماركسية عن الصراع الطبقي . بينما هو في الوقت ذاته يقاوم التعاليم غير المؤذية نسبياً والمتضمنة في المادية الفلسفية. لكن علينا ان نتذكر بأن لوكاش في العام ١٩٣٣ كان يخاطب جمهورا اسيرا ، وفضلا عن ذلك فإنه شعر بواجب يلزمه في دحض مثاليته الفتية ، بينما راح يؤكد انه حتى في ذلك الحين لم يكن يجهل من هو ماركس . ان كتاب جورج سيميل « فلسفة النقود »، وكتابات ماكس فيبر عن البروتستانتية زودته بمثال عن « سوسيولوجية للأدب » (علم اجتماع الأدب) ، حيث كانت العناصر الباهتة بحكم الضرورة والتي استقاها من ماركس لا تزال موجودة، وإن لم تكد تكون قابلةللادراك . حقاً، ان العناصر الماركسية(المأخوذة من ماركس) هي غير مدركة بالحس ، حتى ان اشد أتباع لوكاش عناداً وتحمساً لم يتمكنوا أبداً من التعرف إليها . والحقيقة هي ان لوكاش خلال تلك السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى كان موزّعاً بين كانطية لاسك الجديدة وبين هيجلية ديلثاي الجديدة وبين لاعقلانية كيركغارد الدينيـة وبين النزعة الجمالية للحلقة الملتفة حول ستيفان جورج وغوندولف . وبينما عكس تفكيره السياسي تأثير جورج سوريل ، الذي كان حينذاك ـ على الصعيد الفلسفي ـ من المعجبين بهنري برغسون .

ان شيئاً من هذا كله ليس ضاراً بسمعة لوكاش ، لكن المرء لا يمكنه تفسير ذلك بعبارات لها صلة وثيقة بموضوع « موقعه الطبقي » . وعليه فمن الأقرب الى الصدق والصحة ان نقول بأن قلقه الروحي كان المرآة لمدنية هي حينذاك على وشك التعرض لأولى ازماتها الكبرى .

الفصـــل الثـــالـــث

قد يشعر بعض القراء لدى اطلاعهم على الفصل السابق بإغراء يحدوهم الى الاستنتاج بأن مؤلف « التاريخ والوعي الطبقي » كان منظّراً ماركسياً بارزاً ، وأنه شخص مجري، لكن بصورة عرضية فقط ، تلقى تعليمه الاساسي في حقل الفلسفة في المانيا قبل الحرب الاولى . ان هذا الانطباع ينبغي تصحيحه بالعودة الى المصادر الأولية لتطور لوكاش السياسي والفلسفي . لقد بيّنا ان هذه العملية تتضمن تمييزاً مصطنعاً بين مواضيع وثيقة الصلة فيما بينها واهمها تراجع لوكاش التدريجي عن الجمالية بعد عام ١٩١٤ وانهماكه في السياسة خلال العقد الممتد من ١٩١٩ - ١٩٢٩.

ان التاريخ الحاسم هو العام ١٩١٩ . وذلك عندما اصبح شخصاً بارزاً يشغل منصب« مساعد لرئيس الدائرة الثقافية » في الجمهورية الهنغارية السوفياتية، والاهم من ذلك انه اصبح شخصية قيادية في الحزب الشيوعي المؤسس حديثاً . وبحكم منصبه الرسمي احتل ، لوقت قصير ، مكانة هامة في الجبهة

السياسية ، بيدأن انغماسه الأساسي في شؤون الحزب حدث بعيداً عن انظار الجمهور وحظي باهتمام أقل . علاوة على ذلك ، فإن تطور لوكاش الفكري قبل العام ١٩١٩ لم تسلط عليه الاضواء إلا حديثاً وعلى يد منظر هنغاري مجهول يدعى ارفيس تسابو أو تشابو Ervin Szabo وهو سليل عائلة يهودية تنتمي للطبقة الوسطى ، التحق بجامعة فيينا (١٨٩٩ - ١٩٠٣) كطالب يدرس التاريخ والفلسفة ، وهناك تعرف على المواطنين الروس المنفيين الى فيينا ، وأصبح ماركسياً ، ولكنه تثقف ايضاً بكتابات برودون ونيتشه ، ولافروف وكربوتكين . وعند عودته الى بودابست عهد اليه قادة الحزب الاشتراكي مهمة تحرير كتابات مختارة لماركس وانجلز تقع في ٣ اجزاء . ومنذ عام ١٩٠٥ اتخذ تشابو موقفاً معارضاً لقيادة الحزب الديمقراطي الهنغاري شبه البالية مهاجماً عاداتها البيروقراطية ورضاها بالتطور البطيء ،ومعارضاً موقفها السلبي تجاه المبادىء النقابية - الفوضوية التي راجت في فرنسا على يد قادة العمال الذين تصوروا قيام الثورة البروليتاريا على شكل إضراب عام. كانت النقابية الفوضوية مذهباً مثيراً ، تتقرب الى كل من ماركس وبرودون وسوريل وباكونين في وقت واحد . وفي فرنسا كان لها أتباع بين الطبقة العاملة ، وجرى تبنيها رسمياً من قبل المنظمة النقابية الاساسية « الاتحاد العام للعمال Confédération général du travail » في ميثاقها « ميثاق اميان » Charte d'amiens في اكتوبر / تشرين الأول ١٩٠٦ . اما في هنغاريا فالى جانب معارضة الحزب الاشتراكي لها فقد وقفت النقابات ضدها ، ولكنها كانت تنشط في صفوف الطلاب والمثقفين بصورة أساسية ، ولما كان

جلهم ينتمون الى طبقة الانتلجنسيا ومن أصل يهودي ، فإن ما بدا على شكل خلاف نظري قد تحول تدريجياً الى عداوات عنصرية ، إضافة الى الارتياب الطبيعي الذي شعر به منظمو العمل الواقعيون تجاه المثقفين الثرثارين من الطبقة الوسطى . وقد تفاقم هذا الكره المتبادل في عام ١٩١٨ - ١٩١٩ بسبب كـون غالبية القيادة الجديدة للحـزب الشيـوعي الهنغـاري من المثقفـين ، والـذين القى الديمقراطيون الاجتماعيون عليهم مسؤولية فشل تجربـة الحكم القصيرة وما أعقبها من اضطهاد دموي للاشتراكيين والشيوعيين على حد سواء على يد الثورة « البيضـاء » المضادة . لم يكتب « لتشابو » الذي توفي في ايلول عـام ١٩١٨ ان يرى تكـراراً للمحاولة الفاشلة للاستيلاء على السلطة ، كما فعل لينين ، ولم يعرف بأنه منح عضوية فخرية في « أكاديمية موسكو الاشتراكية » وان مركزه كمنظر أول لليسار الهنغاري قد آل الى لوكاش .

انتحل نادي الطلاب الاشتراكي الذي أوجده تشابو عام ١٩٠٢ اسم « الطلاب الثوريين الاشتراكيين في بودابست » واعتبر لوكاش من بين اعضائه المؤسسين . وقام بعض من اتباع النادي السابقين ممن لم يغادروا هنغاريا ، بالتردد على محاضرات تنظمها منظمة اقل تطرفاً تسمى حلقة « غاليلو» Galileo Circle وهذه المجموعة تأسست في خريف عام ١٩٠٨ للاهتمام بالمصالح الطلابية ، ولإيجاد منتدى للنشاطات الثقافية ، داخـل الجامعـة . واكدت « الحلقة » في بيانها الافتتاحي : « انطلاقاً من الوعي الكامل بالدور التاريخي للمثقفين . . . نعاهد عـلى توحيـد الطاقـات الفكريـة

للطلاب الهنغاريين وتقويتها . . . لتمكينهم من أن يصبحوا مهيئين ومقاتلين مدركين لأهمية تحرير هنغاريا اجتماعياً » . ولتحقيق هذا الهدف شجعت، « الحلقة » الحملات الديمقراطية المعادية للاكليركية ، من النوع الذي يلقى التأييد الطبيعي من العناصر الليبرالية اليسارية ، خاصة في بلد مثل هنغاريا ، حيث كان النظام الحكومي القديم - بالرغم من شكله البرلماني - غير ديمقراطي على الإطلاق . ونظمت « الحلقة » ايضاً محاضرات وندوات حول الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم الجمال . وكان من بين المحاضرين البارزين ادوارد برنشتاين ، والباحث الماركسي النمساوي ماكس آدلر Adler . لقد أوجدت الحلقة « بالرغم من استقطابها لعدة مئات من التلاميذ فقط ، مناخاً للتعبير عن الآراء بشكل جماهيري » ، واعتبرت هذه الآراء حسب المقاييس المحلية ، متطرفة إن لم تكن تخريبية تماماً . ويمكن القول بأن معظم اتباعها من الليبراليين المتطرفين ، بيد انهم اختلطوا بمجموعة فوضوية - نقابية صغيرة، أصبح تشابو منظرها الملهم . ولم تحظ أية مجموعة من المجموعتين بتشجيع الحزب الديمقراطي الاجتماعي الهنغاري ، فقد كان الحزب منهمكاً بتنظيم العمال ، ثم إن قادته وضعوا ثقتهم في تحليل كارل كاوتسكي الحتمي للماركسية . وقد دفع اشمئزاز تشابو من معتقد الديمقراطيين الاجتماعيين ورضاهم عن أنفسهم الى اعتناقه النزعة النقابية Syndicalism ، أما الآخرون - ومن ضمنهم المنظر الشيوعي لا تزلو روداس - فقد اختلفوا بشدة مع القيادة الرسمية الأمر الذي تسبب في طرد الصحافي الشاب جيولا الباري من الحزب ، وقد سبق لالباري ان قام بعدة محاولات

عصيان فاشلة (جرى اتخاذ قرار طرده في مؤتمر الاشتراكيين الدوليين الذي عقد عام ۱۹۱۰ في كوبنهاغن وعارضه كل من لينين وروزا لوكسمبورغ) . ولم تكن مفاجأة لأحد ان يهتدي « الباري » في شباط عام ۱۹۱۹ الى الحزب الشيوعي الهنغاري ، فقد كان ذلك بمثابة ردّ للصنيع .

وبالرغم من أن لوكاش لم يكن متورطاً بهذه المسائل السياسية البحتة ، فقد بقي على صلة مع تشابو الذي كان يمثل بالنسبة اليه كل ما هو حي وقيّم في التقليد الاشتراكي . وهذا ما يفسر إشاراته شبه الاعتذارية لسوريل في وقت لاحق ، وهو مفكر استنار تشابو بكتاباته واعتبرها جزءاً من عدته الايديولوجية . من هنا ايضاً نستطيع ان نفهم كيف بدأت فكرة « الوعي » تأخذ دوراً مهماً في تفكيره ، ويمكن استنتاج دلالات هذا المفهوم بالنسبة للمفكرين في بودابست من خلال الرسالة التي بعث بها أوسكار جاتشي الى تشابو وهو المحرر البارز لمجلة « القرن العشرين » الليبرالية الراديكالية النافذة ، والتي قالت عند ظهورها في أول يناير / كانون الثاني ۱۹۰۰ « ينبغي علينا نحن المثقفين العمل على تحويل الوعي المنقوص الذي يعشش في نفوس الجماهير الى وعي متكامل حول العالم ، وان نقوّض المجتمع القائم بأسلحة الأخلاقية والعلم والفنون » . اننا لا نلمس في هذا البيان شيئاً اشتراكياً أو ماركسياً باستثناء التأكيد على الدور الأساسي للمثقفين في توضيح دور الوعي الجماهيري والتعبير عنه . كان جاتشي الذي يستعير أحياناً بعض المصطلحات النقابية ، يؤمن بأن المسألة الاساسية في هنغاريا

هي ملكيـة الأراضي : وهو ايمـان معقول جـداً شـاركـه فيـه الديمقراطيون المعتدلون . لقد قام جانشي ، بوصفه اشتراكياً ، بالتأثير على تشابو الذي قام بدوره بالتأثير على لوكاش . وتجدر الاشارة هنا الى ان تشابو اعتبر الاشتراكية ، في مقالة له نشرتها مجلة « الزمن الجديد » Neue Zeit التي يرأسها كاوتسكي ، بأنها متـطابقة مـع الحريـة وبالتحـديد لمـا دعاه بـ « النـظام العالمي الديمقراطي » . لم يرفض تشابو ، بحكم أخلاقيته الصارمـة ، اللعبة البرلمانية السياسية فحسب ، بل رفض التسويات السياسية في حد ذاتها ـ وهذا النوع من الاخلاقية ينسجم ، الى ان يتم الاستيلاء على السلطة ، مع الحماسة الثورية للحركة النقابية ، وبعد ذلك تتخذ مشكلة إبقاء الثورة « نقية » وغير فاسدة شكلاً آخر .

ولكن لنتوقف الآن قليلاً عند مجلة اوسكار جانشي « القرن العشرين » «Huszadik Szazad» . في باديء الأمر كانت هذه المجلة الشهرية تلقى دعماً من رجال الأعمال الأثرياء والمحامين ، إلا ان توق محررها الشديد للاشتراكية أدى الى وقوع الطلاق بينهما مما حمل جانشي وأصدقاءه للميل اكثر نحو حركة العمال . وكان الهدف الأساسي من إصدار المجلة هو تشجيع المآرب الديمقراطية الليبرالية في بلد شديد المحافظة يحكمـه الإقطاعيـون والعسكر ورجال الدين . وبعد مرور سنة على تأسيسها أوجد محرروهـا « جمعية العلوم الاجتماعية» والتي اصبحت من ساعتها منتدى للمساجلات الدائرة حول المزايا النسبية للنزعات الفابية والماركسية

والنقابية وغيرها ، مما يدفع الى القول إن الراديكاليين اكتشفوا الاشتراكية وعلم الاجتماع في وقت واحد . وقد كان جلهم من عائلات موسرة ، وكان من الممكن ان يكونوا راضين كل الرضا عن الليبرالية فيما لو كان لها امل ضئيل بالنجاح في بلد مثل هنغاريا حيث كانت الديمقراطية تعني الثورة بالتأكيد ، (لأنه ليس ثمة شك بأن جمهورية ديمقراطية سوف تجرد الإقطاعيين الذين يملكون ثلث أراضي هنغاريا من ممتلكاتهم ومن سيطرتهم على الحكومة والبرلمان) . ومن هنا فإن وضع هنغاريا هو أقرب الى وضع روسيا القيصرية منه الى المانيا أو اوروبا الغربية . فالتحول الديمقراطي لا بد وان يكون مقبولاً من حيث الأساس من قبل الطبقة الوسطى ، بيد ان بعض المعتدلين من أبناء هذه الطبقة ، والذين سبق لهم ان ساندوا هذه المغامرة ، سرعان ما سحبوا تأييدهم ، وعندما انسحبوا لم يكن أمام جاتشي ورفاقه سوى خيار واحد ، وهو أنهم اذا ارادوا كسب الجماهير الى جانبهم ، فلا بد وان يوجهوا اهتمامهم نحو البروليتاريا الصناعية . ولكن ما الهدف من وراء ذلك ؟ .

لقد كانوا يهدفون ، حسب التعبير الماركسي ، الى احداث « ثورة بورجوازية » ، حتى وان كانت معتقداتهم الشخصية اشتراكية أو نقابية ، وهذا النوع من الغموض المألوف جداً في عصرنا ، كان جديداً بالنسبة الى المثقفين الهنغاريين في عام ١٩١٠ بالرغم من أن الراديكاليين الروس والبولنديين جاهدوا عشرات السنين في سبيل تلك الثورة . ان الحديث عن رفع مستوى وعي الجماهير الى مستوى الطليعة المثقفة سيكون مألوفاً لشخص مثل

لينين وروزا لوكسمبورغ . ولهذا السبب بالتحديد لم يواجه لوكاش ـ الذي كان مثل تشابو « يكتب لمجلة القرن العشرين »ـ صعوبة تذكر بعد عام ١٩١٧ في الانتقال من جورج سوريل الى الاشتراكية الثورية التي نادت بها روزا لوكسمبورغ ومن ثم الى اللينينية .

وكان هناك شيء آخر : وهو ان الدور الاساسي للمثقفين ترجم نفسه بصورة تلقائية إلى مذهب يقول بأن الإصلاح الخلقي ينبغي أن يحل مكان الثورة السياسية . من هذا المنطلق وصف جانشي مجلته الليبرالية بأنها « تعبير عن تركيبة روحية وخلقية جديدة » .أما تشابو ، مساعد رئيس التحرير في مجلة « القرن العشرين » ونائب رئيس « جمعية العلوم الاجتماعية » فلم يكفّ عن التأكيد على أهمية الدوافع الخلقية الكامنة في الرسالة الاشتراكية الأصيلة . وخصص لوكاش مقالة عام ١٩٢٠ لمعالجة مشاكل الأخلاقية الشيوعية ، وهذه المقالة التي كتبت بالالمانية ونشرتها مجلة « الشيوعية » Kommunismus لسان حال الأممية الشيوعية ، والتي تولى تحريرها في فيينا ، حملت العنوان التالي : « الرسالة الخلقية للحزب الشيوعي » كانت عبارة عن تتمة لمقال سابق وبخه عليه لينين لأنه دعا فيه لمقاطعة الانتخابات النيابية . وقد وقف لينين في هذه المناسبة الى جانب قائد الحزب الهنغاري « بيلا كون » Bela Kun (اعدم فيما بعد بناء على أوامر ستالين في عام ١٩٣٩) في وجه لوكاش ، اليساري المتطرف ، الذي بقي يحتفظ حتى ١٩٢٠ ببقايا ايمانه بالنقابية .

بيد ان هذه الحادثة ينبغي أن لا تحظى باهتمامنا هنا، فالذي

يعتبر مثيراً حقاً هو تعريف لوكاش لـ « الرسالة الخلقية » للحزب الشيوعي . فقد كتب يقول في مقالته التي سبق ذكرها(*) (وقد اعيد طبعها في « كتابات حول الايديولوجية والسياسة ») : ان « الحزب هو التعبير التنظيمي عن الإرادة الثورية البروليتارية » . إن هذه الصياغة التي تتوافق مع طريقة روزا لوكسمبورغ في التعبير أكثر من توافقها مع طريقة لينين تعود الى الأيام السابقة قبل عام ١٩١٤ عندما وضع لوكاش ثقته السياسية في « القرارية » الفوضوية النقابية Decisionism التي نادى بها سوريل وتشابو . ان التوجه الأساسي الذي يتضمنه هذا النوع من التنظير كان متفقاً تماماً مع الاخلاقية التي تشربها في هايدلبرغ عندما كان تلميذاً وصديقاً للمفكر لاسك ، فاعتبار دور الوعي (والضمير أو الـوجدان) حاسماً ، أي عدم اعتبارها ظاهـرة مصاحبة للعملية التـاريخية الواقعية ، كان إيماناً مشتركاً بين جميع هؤلاء المفكرين .

انطلاقاً من هذه الافتراضات ، اصبح بوسع تشابو ان يتحول بعد عام ١٩١٧ من النقابية الى البلشفية وذلك فور ان قامت الثورة الروسية بمنح مجالس العمال ، التي اخذت تحل مكان المؤسسات البرلمانية البورجوازية ، حق النظر في الأمور . لم تكن سيطرة حزب لينين على السوفيات (والتي كان يعني فقدانها وقوعها تحت سيطرة حزب سياسي آخر) ، واضحة للماركسيين في وسط اوروبا ، ولكن بعد مرور عقد من الزمن اعتنق خلاله لوكاش اللينينية وتخلى

(*) وقد اعيد طبعها في « كتابات حول الايديولوجية والسياسة » .

عن هـرطقاتـه اللوكسمبورغيـة ، اصبحت هذه السيـطرة اكثر وضوحاً . ولعله من الأهمية بمكان ان يشار هنا الى الاضطرابات الفكرية التي اعقبت الحرب ، والتي ادت الى ظهور نوع جديد من النخبوية Elitism على المسرح اليساري السياسي ، ونعني بذلك حكم التكنوقراط . لم يبذل الحزب الديمقراطي الاجتماعي أو الاتحادات التي يسيطر عليها جهداً خـاصاً لتنـظيم المهندسـين الصناعيين أو العلماء ، أو المخططين وباقي الملاكات الاداريـة والموظفين من ذوي الرتب العالية اصحاب الياقات البيضاء White Collar Workers وكانت الحرب قد دفعت بهؤلاء الأعضاء المنتمين الى « الانتلجنسيا الإنتاجية » حسب تسمية بعض الكتّاب لهم - صوب التطرف ، وشكلوا في بداية عام ١٩١٧ ، بعد ان اثارتهم المراحل الأولى من الثورة الروسية وقبل تولي البلاشفة السلطة ، نقابة خاصة بهم لتحقيق هدفين : الأول حمـاية مصـالحهم في الشركات ، والثاني مساعدة النشاطات المعادية للحرب التي سبقهم اليها بعض العمال النشطين، النقابيين والمنشقين من الاشتراكيين. وقد أدى اهمال وتوبيخ القادة النقابيين والحزب الديمقراطي الاجتماعي لهم الى ان قام هؤلاء التقنيون المسيّسون Politicized Technicians باختراع ايديولوجية اشتراكية خاصة بهم عرفت فيها بعد باسم « اشتراكية المهندسين » Engineer Socialism ويمكن القول بأن غيولا هفيزي وهو منظرهم الأول أحيا مجدداً السان سيمونيه Saint - Simonism بالرغم من أنه لم يكن ينظر إليها بالتأكيد ، بهذا المنظار . وحسب رأي المؤرخ جوزف لنجيل الشيوعي لاحقاً ، فإن هفيزي وضع « خطة لإحداث ثورة عن طريق القيام بعمل

تخريبي متفق عليه يقوم به التقنيون والمهندسون الذين كان من المقرر ان يقوموا بالدور الاساسي في عملية التحولات الاجتماعية ، ورفض هفيزي نظرية ماركس حول فائض القيمة Surplus Value ، ، فهو يعتقد بأن الجزء الأساسي من فائض القيمة يتأتى من المخترعات الهندسية والتقنية . . . اما العمال فكان عليهم ان يكونوا حلفاء مساعدين في معركة « المنتجين المبدعين » .

وانطلق اليساريون المثقفون ، ممن تشبعوا بالإيمان التكنوقراطي ، للعمل ، وفي نهاية عام ١٩١٧ وطّدوا علاقاتهم مع منظمي النقابية في بودابست على حساب الديمقراطيين الاجتماعيين والنقابات شبه الرجعية التي يسيطرون عليها . في هذه المرحلة انضم اليهم كل من الماركسيين المثقفين من « حلقة غاليليو » وتشابو وأتباعه من الطلاب ، واشتراكيون بارزون معادون للحزب من امثال ايلونا دوتشينسكا التي كانت قد وصلت آنذاك من سويسرا تحمل كتابات ومنشورات دعائية أعطتها لها صديقة لينين انجيلكا بلابانوفا Balabanova . وكان التحريض ضد الحرب بين مستخدمي المحلات الذين كانوا متعاطفين أصلاً مع الأفكار النقابية ، عاملاً مهماً في الأحداث المأساوية التي وقعت عام ١٩١٨ - ١٩١٩ عندما انهار الحكم القديم في هنغاريا تحت وطأة الهزيمة العسكرية في الخارج والاضطراب العام في الداخل . وعقب انهيار المملكة النمساوية الهنغارية في نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩١٨ ، أصبح الطريق ممهداً امام تجربة جمهورية هنغاريا السوفياتية القصيرة ، وبعد استقالة حكومة الكونت كارولبي Karolyi (والتي ضمت اوسكار جاتشي عن الراديكالية البورجوازية) في ٢١ آذار عام

١٩١٩ ، مهدت الطريق امام الديمقراطيين الاجتماعيين لإقامة حكومة ائتلافية مع الشيوعيين الذين أطلق سراح قادتهم في اليوم ذاته ، واصبحوا بعد مضي ٢٤ ساعة فقط مفوضي الشعب Commissars .

وكانت مساهمة لوكاش في هذه الأحداث الكبيرة مهمة . فبعد عودته الى بودابست قادماً من هايدلبرغ في عام ١٩١٧ ، حيث مكث فيها بين عامي ١٩١٥ - ١٩١٦ يعمل مراقباً للبريد ، وهي مهنة يمكننا القول بأنه كان ينظر اليها بروح ليبرالية ، انضم الى عالم الاجتماع العتيد كارل مانهايم Mannheim والى مدرسة الناقد الفني أرنولد هاوزر Hauser في « المدرسة الحرة للعلوم الانسانية » . وكان هذا مشروعاً يغذي التيار العام للراديكالية المثقفة ، بيد انه لم يكن يحمل طابعاً حزبياً سياسياً . اما موقف لوكاش خلال تلك الفترة فقد وصفه اصدقاؤه المقربون خير وصف حين قالوا انه موقف « اشتراكية خلقية تتصف بمسحة من تولستوي » . ومن المؤكد انه لم ينضم الى الحزب الشيوعي فور تأسيسه في نهاية نوفمبر /تشرين الثاني عام ١٩١٨ على اثر اصرار كون Kun الذي كان قد عاد حديثاً ، على الانفصال رسمياً عن « الاشتراكيين » محدثاً بالنتيجة انشقاقاً - بمساعدة مستخدمي المحلات النقابيين والديمقراطيين الاجتماعيين المنشقين والفوضويين المثقفين وأتباع هفيزي من جماعة « اشتراكية المهندسين » الذين اختير قائدهم عضواً في اللجنة المركزية في ١٥ ديسمبر / كانون الأول بالرغم من ميوله غير الماركسية .

وخلال هذا الشهر ـ التاريـخ الدقيق غـير مؤكد ـ انضـم لوكاش ، بعد تردد أظهره في البداية ، الى الحزب الشيوعي ، ولكنه لم يكن بين أعضاء اللجنة المركزية ، التي عينت نفسها ، والتي سيطرت عليها مجموعة بيلا كون Kun البلشفية بالإضافة الى اربعة اعضاء من الديمقراطيـين الاجتماعيـين من بينهم لاتشلو روداس Rudas الذي ميز نفسه لسنوات عديدة بمعتقد لينيني ـ ستاليني جريء . والمهم هنا أنه خلال الفترة القصيرة الممتدة من شباط / فبراير الى آذار / مارس عام ١٩١٩ ، وعندما كان بيلا كون Kun ورفاقه الحميمون في السجن فإن لوكاش (يساعده زاملي Zamely وجوزيف ريفاي Revai وأرنو بتلهايم وألك بولزار Bolsar) لم يقوموا بادارة امور اللجنة المركزية السرية فحسب ، والتي يسيطر عليها جهاز الحزب في ذلك الوقت ، بل انهم وجهوها نحـو مسار يسـاري متطرف وانضمـوا الى الآخرين للتحضـير لانتفاضة ايار / مايو المسلحة . ويبدو ان لغياب بيلا كون Kun الموقت وباقي القادة المدربين في موسكو ، قد اطلق تـطلعات لوكاش النقابية الفوضوية من عقالها للقيام بانتفاضة مسلحة ، ـ وهي تطلعات لم تتحقق أبداً بسبب استقالة كاريولي المفاجئة . وتسليمه السلطة فوراً للشيوعيين ـ والتي كان ينبغي ان تبدأ على شكل إضراب عام وتنتهي بانتفاضة مسلحة وفترة قصيـرة من الإرهاب . ولم يكن الاندماج الاشتراكي ـ الشيوعي ، الذي نظم على عجل ، والذي مكن بيلا كون Kun ومساعديه من تشكيل حكومة ائتلافية بسلام في ٢٢ آذار / مارس عام ١٩٢٢ ، متفقاً مع ميول اولئك اليساريين المتطرفين الذين آمنوا بأن الاستيلاء على

السلطة يتم عن طريق العنف . بيد ان لوكاش رضخ للحزب واحتل منصب المفوض العام لشؤون الثقافة في الحكومة الجديدة ومنصباً اسمياً هـو نائب الأمـين العام للحـزب الـديمقـراطي الاجتماعي .

ان اهتمامنا ههنا بالحدث المفجع الذي لم يدم طويلاً ، قيام جمهورية هنغاريا السوفياتية ، انما ينبع فقط من كونه قد زوّد لوكاش بترسانة من الأسلحة السياسية والنظرية في نضاله المقبل مع كتلة بيلا كون ، ومن المهم هنا التأكيد على ان هذه المواجهة انتقلت الى مسألة « البورجوازية الديمقراطية » وهي مسألة كانت مصدر ازعاج دائم للشيوعيين لا سيما في بلد متخلف كهنغاريا حيث كانت السيـطرة للفلاحـين . ونتيجة ذلـك ، لم يكن ممكناً للتحـالف الاشتراكي الشيوعي ان ينتظر جدياً الحصول على اغلبية تشريعية ، وكان التشاؤم القائم على اسس صحيحة فيما يتعلق بـالنتائـج المحتملة لـلانتخابـات الشعبيـة من بـين الأسبـاب التي دفعت الديمقراطيين الاجتماعيين للتخلي ، ببطء ، في آذار / مارس عام ١٩١٩ ، عن كاريولي والوقوف الى جانب الشيوعيين . واذا أردنا استخدام الصياغة اللينينية للموضوع فإن قادتهم توصلوا الى رأي مفاده ان وقوع ثورة ديمقراطية بورجوازية في هنغاريا سوف يستلزم فترة انتقالية قصيرة من « ديكتاتورية البروليتاريا » .

وبالرغم من ذلك كانت هناك مسألة ملحّة وأهمّ . فقد أدى انهيار الملكية النمساوية ـ الهنغارية الى تعريض هنغاريا للتدخل العسكري من جانب رومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبلاد الصرب ـ

وجميعها تتلقى الدعم من الدول الغربية بشكل عام ومن فرنسا بشكل خاص . وهذه الدول لها مطالب تتعلق بالأراضي الواقعة في النصف الهنغاري من المملكة الثنائية . وذلك لأن الحكام الهنغاريين لم يكتفوا باستعباد الهنغاريين قروناً طويلة بل امتد استعبادهم الاقليات القومية المضطهدة ايضاً .

وقد جردت اتفاقية الهدنة ، التي اضطر كاريولي الى توقيعها في تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٩١٨ ، هنغاريا من قرابة نصف اراضيها السابقة . واجهز على الباقي الإنذار النهائي الذي سلمه رئيس البعثة العسكرية الدولية الفرنسي في بودابست في ١٩ آذار / مارس والذي يأمر فيه الحكومة بأن تسحب قواتها خلف خطوط الحدود المعينة ، وهدد بالتدخل العسكري في حالة عدم الالتزام بذلك . فألهب ذلك الطلب المشاعر القومية وعندما رفض كارولبي الانذار النهائي وافرج في الوقت نفسه عن قادة الشيوعيين المعتقلين ، استطاع هؤلاء ان يتولوا السلطة خلال ٤٨ ساعة تدعمهم موجة من المشاعر الوطنية والشعبية الأصيلة . ووقف الزعيم الاشتراكي ساندور غارباي Garbai مخاطباً مجلس العمال في بودابست يوم ٢٠ آذار / مارس بقوله : « ينبغي ان نسير باتجاه آخر لنأخذ من الشرق ما حرمنا إياه الغرب . يجب ان نركب موجات الأحداث الجديدة . ان جيش البروليتارية الروسية يتقدم بسرعة » . بهذه الروح انطلقت الجمهورية الهنغارية السوفياتية التي لم تعمر طويلاً ، لتدمج الاشتراكية بالقومية خلال خمسة شهور من وجودها . وعندما أطاحها الجيش الابيض تحت قيادة الادميرال هورثي في شهر آب / أوغسطس بمساعدة القوات الرومانية

والبولندية ، فاق حمام الدم الذي تلا ذلك ما سمح به الشيوعيون لانفسهم من حرية الارهاب خلال الفترة القصيرة من حكمهم .

وفي كلمات ، روى احد الديمقراطيين الاجتماعيين البارزين المعروف بتواضعه الجم والذي كان وزيراً للحربية في حكومة كاريولي قبل ان يتولى قيادة الجيش الأحمر الهنغاري ما يلي :

« بعد ان أنتهت الثورة ، قامت العناصر المضادة بتصفية حساباتها مع ٢٣٤ شخصاً ذهبوا ضحية الارهاب الثوري ، وبالمقابل قتلت ٥٠٠٠ ثوري خلال عدة شهور » .

لم تكن هذه خاتمة المطاف ، فإن حكم هورثي الذي أعدم ٥٠٠٠ رجل وامرأة قد زج في السجون ٧٥٠٠٠ شخص لعلاقتهم المزعومة بالتعاطف مع الشيوعيين وحمل اكثر من ١٠٠,٠٠٠ مواطن على الهجرة . وكانت غالبيتهم العظمى اما من المثقفين الليبراليين ، أو من يهود الطبقة الوسطى في المدن ، الذين كانوا بمثابة العمود الفقري للحياة الديمقراطية ، كائنة ما تكون ، في هنغاريا قبل حكم الارهاب الابيض . وحدثت هجرة جماعية في صفوف الباحثين المشهورين والفنانين من الذين لم يصرحوا بآرائهم السياسية . وفي إطار هذه الكارثة الثقافية ،فإن نشاط لوكاش كنائب لمفوض الشؤون الثقافية ثم كمفوض للثقافة ، بعد ان ترك رئيسه الاشتراكي الحكومة ، لا تستحق الاهتمام الذي حظيت به . اذ لم يتوافر لديه الوقت ولم تتح له الفرصة لأن يصدر اكثر من بضعة قرارات طوباوية استهدفت « تصعيد وعي الجماهير » . ويمكن استنتاج رأي الاشتراكيين في حلفائهم الشيوعيين من خلال ما قاله

احد قادتهم الاحياء :

« كانوا فـلاسفة وشعـراء ومحبين للجمـال Aesthetes ، اقتحموا عاصفة الثورة المعافاة ، بيد أنه لم يكن بوسعهم تحمل القتال المستمر . . . وفي النهاية تراجعـوا بحزن ، الى وحـول آرائهم ومعتقداتهم الفاترة والتي لا تعرف قعراً . كانت المخاطر تحيط بهم من الخارج ، ولكنهم تجمعوا في « البيت السوفياتي » ، وبدأت النقاشات المرة التي لا تنتهي . كان هناك جيورجي لوكاش ، الفيلسوف السابق من هايدلبرغ وجوزيف ريفاي موظف البنك السابق والمنظّر في علم الجمال ويارفين سينكو ، الكاتب المسيحي المتأثر بتولستوي الشاب وزوجة لوكاش الروسية ايلينا اندرفينـا غرابنكو . وكان هناك ايضاً بعض الفكرانيين أو الايديولوجيين ذوي الافكار المشتتة . وانتشرت في الجو مقتـطفات من هيجـل ومـاركس وكيركجـارد وفيختـه وفيبـر وجـان بـول وهـولـدرين ونوفاليس » .

ان الحملة الناجحة التي قام بها لوكاش يشاركه توماس مان وشخصيات ادبية المانية بارزة على اثر اعتقاله في اكتوبر / تشرين الأول عام ١٩١٩ في فيينا ، كانت بمثابة شهادة بـالأهمية التي اكتسبها خلال الحقبة التي قضاها في هايدلبرغ . وعلى اثر الافراج عنه بعد اشهر قليلة من قيام الحملة ، انغمس في المنـاقشات الكتلوية الدائرة بين اللاجئين الشيوعيين في فيينـا ، حيث قام الحزب الشيوعي الهنغاري المحظور بتأسيس مكتب له . (وعبر مسار هذه المناقشات الداخلية خرج لوكاش بمذاهبه التي ضمنها

كتابه « التاريخ والوعي الطبقي ») . وتحدد خط لوكاش السياسي والنظري في العشرينات بفعل هذا النضال ، والذي لم يكشف النقاب عن أهميته إلا في العام ١٩٥٦ ، عندما سمح له « الانفراج » الهنغاري القصير ، بأن يطلع الجمهور على مدى تورطه فيه . وفي غضون تلك السنوات اصبح لوكاش حليفاً لجنو لاندلر ، وهو قيادي بارز نجا من كارثة عام ١٩١٩ وكان ينافس بيلا كون على قيادة الحزب الشيوعي الهنغاري . وفي عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ التزم لوكاش ببرنامج العمل المسمى بأطروحات بلوم Blum (بلوم هو الاسم الحركي للوكاش داخل منظمة الحزب الشيوعي الهنغاري) حيث طور موقفاً سياسياً خاصاً وبعد موت لاندلر في عام ١٩٢٨ وما تلا ذلك من رفض « لأطروحته » من قبل القادة الهنغاريين القاطنين في موسكو ومن جانب الشيوعية الدولية نفسها ، أبعد من عملية اتخاذ القرارات وأجبر ـ وكان هذا ضد رغبته ـ بأن يقصر نفسه على الفلسفة والنقد الأدبي .

« اطروحات بلوم »

ان ما تقدمت به « أطروحات بلوم » الهرطقية هو خطة راديكالية ـ ديمقراطية تتمركز حول فكرة قوامها ان نظام حكم هورثي يمكن ان يستبدل به نظام ديمقراطي جمهوري فقط . من هذا المنطلق ينبغي ان تطرح جانباً فكرة « ديكتاتورية البروليتاريا » بالمفهوم البلشفي ، لأن لوكاش ولاندلر خططا لتحالف مع الديمقراطيين الاجتماعيين (الذين سمح لهم مرة اخرى بمزاولة نشاطاتهم ضمن حدود معينة) . وبالرغم من ان « اطروحات بلوم » قد صيغت

بلغة لينينية ، فقد كانت محاولة ترمي للخروج باستراتيجية من اجل القيام بثورة ديمقراطيةوالتي يمكن ان تقود في مراحلها الختامية ، ولكن ليس بالضرورة ، الى تحقيق الاشتراكية ، شرط ان تلقى دعماً جماهيرياً حقيقياً لقراراتها ضد الملكية الخاصة . كان انحراف لوكاش « اليميني » في ذلك الوقت ، الى حد ما ، جزءاً من نضال كتلوي أوسع اقترن باسم نيكولاي بوخارين (١٨٨٠ ـ ١٩٣٨) . الذي تحدى حينذاك انغماس ستالين في الارهاب الداخلي ومغامراته اليسارية في الخارج .

من هنا ينبغي ان لا يفوتنا فهم محاولة لوكاش الفاشلة في رد الاعتبار لبوخارين ، أحد ابرز ضحايا محاكمات موسكو عام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ ، على اثر الخطاب الذي القاه خروتشوف عام ١٩٥٦ وشجب فيه ستالين . لقد حطمت « بوخارينيته » الشخصية عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ مستقبله السياسي ، بيد انه احتفظ بعضويته الحزبية وحقه بتفسير الماركسية اللينينية لصالح قرائه الألمان والهنغاريين شريطة ان لا يتدخل بالامور السياسية . بيد انه لم يفعل شيئاً إلا بعد فترة « الانفراج » عام ١٩٥٦ » فتشجع على الأخذ بالثأر Vendetta أو الانتقام من بيلا كون معلناً في الوقت ذاته بأن سحبه « لاطروحات بلوم » عام ١٩٢٩ ، إنما حدث لأسباب تكتيكية . وقبل ان ندخل في تفاصيل بدعة لوكاش الشهيرة في عام ١٩٢٣ ، تجدر الاشارة الى ان اتجاه لوكاش العام خلال تلك السنين اصطدم بمفهوم لينين للفلسفة ، ذلك لأنه عندما قام باستعادة البعد الهيجلي في فكر ماركس فإنه انتهك ، عن غير

قصد ، تفهم لينين لمؤلف « انجلز » الديالكتيكية المادية ، بتأويله التصويري الساذج لدور الوعي . وفي نفس الوقت ، فإنه سعى للتوفيق بين نظرة لينين النخبوية لدور الحزب الشيوعي وبقايا ايمانه الشخصي بروزا لوكسمبورغ والنقابية . ومن الناحية الفلسفية ، فإن نقاده اللينينيين اعتبروه هيجلياً يسارياً وليس مادياً ، ومع ذلك فإنه أعطى «الوعي الثوري » دوراً مهمًا يتفق تماماً مع مفهوم لينين للسياسة .

ان الفكرة الراديكالية التي نسبت الى البروليتاريا (ومن الناحية العملية للحزب الشيوعي بوصفه طليعة هذه الحركة) والتي تختلف جذرياً عن الفكرة السائدة في المجتمع البورجوازي زودته بمقياس لتعريفه الايديولوجيا : لقد عزا « الوعي الزائف » لتعريف الطبقة الحاكمة بمفردها وفي الوقت نفسه نسب للطبقة الثورية الكادحة امتلاك « الوعي الحقيقي » ، وإن كان هذا الوعي بدائياً ويتطلب ارشاداً وتوجيهاً من جانب الحزب الشيوعي .

ان تعبير الطليعة ـ وهو يعني ببساطة مسألة فرض نسبة التقدم وخوض المعركة في وقت يتم فيه استباق الظروف المرئية للحركة بكاملها ـ يخفي صعوبة هامة ، وهي ان الحزب في الحقيقة ، ليس اكثر الاقسام تقدماً في الجيش البروليتاري ، وإنما هو قوة « لا طبقية » فرضت نفسها على حركة عمالية هشة . لم يكن هذا بتاتاً ما كان يفكر به ماركس عندما نبه العمال الى انهم لن يحققوا شيئاً ما لم يكن عندهم وعي كامل بأهدافهم النهائية . وبالمنظور الماركسي فإن تحرير الطبقة العاملة هو مسؤولية هذه

الطبقة وحدها ، وليس مسؤولية النخبة الثورية من المثقفين . ان الـطبقة العـاملة تمتلك درجـات متفـاوتـة من الـوعي ، وعـلى الاشتراكيين ان يعملوا مع تلك التي تكون اكثرها تقدماً ، وهذا هو كل ما في الأمر . ان مفهوم النخبة التي عندها وعي خاص بها هو مفهوم يرفضه ماركس ، ومن الناحية العملية فإن لينين لم يصغ الموضوع بمثل هذا الوضوح .

لقد ترك هذا الموضوع للامنتمين أمثال لوكاش ، الأمر الذي جعله ينفر منه . وفات العديد من القياديين الشيوعيين في ذلك الحين معنى التزامهم . واكثر من ذلك ، لقد كان بوسعهم ، وهذا ما فعلوه ، ان يشيروا الى أن لوكاش كان « هرطوقاً » على الصعيد الفلسفي ، بمعنى انه كان يسارياً هيجلياً وليس مادياً . ومع ذلك ، وبالنسبة لفهمه السياسي ، فإن مصدر إحراجهم جاء من حقيقة انه تخطى لينين في توضيح الدلالات الكامنة من وراء الوضع الجديد للحزب . ان نوع الماركسية التي ادّعاها لنفسه لها نغمة نخبوية . ان صيغة لوكاش برفعها « الطليعة » الى مصاف الحقيقة التاريخية المستقلة ، التي وحـدها تضم الـوعي الحقيقي للثورة اللينينية قد اصبحت غير قابلة للاتفاق مع تمجيد روزا لوكسمبورغ الرومانسي للحركة الجماهيرية .

والامر الذي ينطوي على مفارقة هو ان تمجيد لوكاش للدور التاريخي للطبقة العاملة ، والتي في الحقيقة لم تعتبر بتعريفه طبقة ثورية ، قد مهد الطريق امام الاكتشاف الستاليني ، وقوامه ان الطبقة العاملة اصبحت طبقة مضادة للثورة ينبغي صدها بالقوة.

ان الدلالات الكاملة لهذه الأمور اصبحت مـاثلة للعيان عـام ١٩٥٦ ، حين وقعت الانتفاضة في هنغاريا ، وعندما برهن لوكاش ـ وهذه ليست أول مرة ـ على تذبذبه ، فوقف الى جانب الثوار متردداً ، منكراً بذلك معاني نخبويته الخاصة . مع ذلك لم تكن هذه نهاية الأمر . ففي أواخر الستينات وقع صديق للوكاش في مـأزق ـ وهو انـدراس هيجدوس Hegedus المعـاون السابق لراكوسي ورئيس للوزراء من نيسان/ابريل١٩٥٥إلى تشرين الأول/ اوكتوبر ١٩٥٦ ـ على اثر اصطدامه بقيادة الحزب التي تلت ستالين وراكوسي فوضع افكاراً شخصية في غاية الهرطقة تمثل نوعاً جديداً من « النخبـوية » : تكنـوقراطيـة محضة تـذكـر بـ « اشتـراكيـة المهندسين » التي نادى بها هيفزي عام ١٩١٧ ـ ١٩١٨ . ومن بين الأمور التي تقدم بها الاطروحات التالية :

١ ـ ان السوسيولوجيا أو علم الاجتماع ـ لا بل جميع المحاولات العلمية البحوثية ـ لا يمكن ان تكون خادمة لأي حزب أو عقيدة سياسية ، فالبحث المتواصل عن الحقيقة هو هدفها الوحيد .

٢ ـ ان النزاعات بين الفئات التي تمثل اصحاب المصالح والنفوذ في المجتمع الاشتراكي ليست شرعية ، ولكنها مفيدة ، بشرط ان توجد الاشكال الدستورية لحلها . وعلى سبيل المثال فإن الدور المناسب الذي تلعبه نقابة العمال هو حماية حقوق العمال .

٣ ـ ان النظرية الماركسية تحتوي على عدد من الأساطير همها الوحيد تنبيه البروليتاريا واخضاعها لتأثير العمل الثوري . وعلى السلطة حينما تتماسك وتقوى ، ان تجابه هذه الاساطير بالحقائق

لئلا تتصلب وتصبح عقيدة جامدة ، كما حصل إبان حكم راكوسي . ولتحقيق هذا الهدف ينبغي إطلاق حرية العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع بصورة خاصة) لانتقاد جميع مظاهر المجتمع .

ومن باب الاعتدال المستحسن ، أكد هيجدس بأن الديمقراطية اخذت تتحول مشكلة حقيقية في ظل الاشتراكية . وفي حزيران / يونيو عام ١٩٦٨ عندما بدا أن القوى الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا المجاورة على وشك احراز نصر سياسي ، كتب هيجدس يقول :

« ان الحزب اللينيني خرج من النضال بتيارات اصلاحية وأحزاب ديمقراطية اجتماعية تؤيد الأخذ بروح التطور ، كما انه خرج بمظهر الحزب القائد في الصراع من اجل اقامة حكم الطبقة العاملة ، وكقائد للمعركة التي خاضها العمال لتحقيق هذا الهدف كان الهدف تحقيق سيطرة تضع حداً لحق الملكية الخاصة لرأس المال ولجميع تلك الاشكال المؤسسة لسلطة ونفوذ الرأسمالية المبنية على الملكية الخاصة ، أو التي أقيمت لهدف حمايتها بأي ثمن . إن أي شخص لا يأخذ بالحسبان أو لا يهمه هذا الدور الهام للحزب اللينيني بكل ما يترتب عليه من نتائج لن يستطيع ان يفهم شيئاً من الدروس المستخلصة من تاريخنا الحديث » .

ان عملية خلق سلطة للطبقة العاملة أوجدت حالة جديدة ، وهي ان الحزب الذي كان يناضل من اجل الحصول على السلطة اصبح يتمتع بالسلطة بما فيها من سلبيات وإيجابيات . (ان هذه

الوظيفة الجديدة بالذات خلقت موقفاً صعباً لتلك الاحزاب ، ونتيجة لخصوصيات الوضع التاريخي ، فإنها اصبحت منظمات قوية مؤهلة لقيادة الجماهير في هذه المرحلة الثانية فحسب) . وأتيحت الفرص لحل المهام الجديدة بطرق مختلفة ، بيد انه كان امراً لا بد من مواجهته : كان لا بد من اقامة وترسيخ نظام اداري جديد بشكل أو بآخر ، وبالتحديد نظام مدني ، أي ان تعطى السلطة الحقيقية للهيئات الادارية المختلفة.

وفي السنوات التي اعقبت انتصار الثورة الاشتراكية مباشرة طرحت البدائل الثلاثة التالية :

البديل الأول : وقد شرحه تروتسكي الذي كان نصيراً لخلق دولة مونوليثية* Monolithic على النمط العسكري (ولئلا يضلل احد ، فقد كان تروتسكي في الثلاثينات من اكثر النقاد عنفاً في معارضته لهذا الحل ، وهو أول من وضعه بيد انه لم يوضع موضع التطبيق الفعلي إلا في ظل قيادة ستالينية) .

اما البديل الثاني ، فقد أيده ممثلو ما يسمى بالمعارضة العمالية : كان مطلب هؤلاء انتخاب قادة النشاط الاقتصادي (ابتداء من المراقب وحتى المفوض العام) من قبل المستويات المختلفة التي يشرف عليها العمال . أو بالأحرى من قبل نقاباتهم التي تمثلهم . كان هؤلاء يؤيدون اسلوب اللجان أو « القيادة الجماعية » في وجه مسؤولية القيادة الفردية .

(*) Monolithic الشيء الذي يتكشف عن وحدة متراصة وانسجام كلي .

وأجد نفسي في موضع بالغ الصعوبة عند تطرقي للبديل الثالث . يبدو لي ، الى حد ما ، انه لم يظهر بشكل حاسم فيها اذا كان لينين قد ادرك الفارق - حتى ولو انه تحدث عنه بهذا الشكل - بين سلطة الادارة وسلطة المجتمع : مع ذلك فإنني من جهة اخرى ، أبتعد عن الاعتقاد بأن لينين كان يرى كل شيء بصورة صحيحة » .

ان صاحب السطور السابقة تفصله مسافة طويلة عن الايمان البسيط للجيل الاول من الشيوعيين الهنغاريين . فلنعد الآن الى الصيغة التي اسبغها لوكاش على هذا الإيمان بعد ان انتقل من « اليسارية المتطرفة » الى اللينينية .

الفصل الرابع

تعرضنا في الفصول السابقة لبعض التيارات الرئيسية المتباينة والتي ادى التقاؤها الى جعل فيينا لفترة وجيزة ، العاصمة الثقافية لأوروبا الوسطى . واذا ما انهمكنا في معالجة موضوع لوكاش الاول والاساسي في النظرية الماركسية فإننا سوف ننحدر الى الدوامة . ولعل من المفيد ان نتذكر هنا أن مدرسة التحليل النفساني Psychoanalysis ومدرسة الوضعية المنطقية Logical Positivism هما من مواليد فيينا ، وان لوكاش لم يتأثر بأي من المدرستين . واذا كان فرويد قد لفت انتباهه في السنوات اللاحقة ، فقد قصد من وراء ذلك ان ينعي له ما أسماه بـ « لاعقلانيته » - وهذا حكم لا يشاركه فيه الماركسيون النافذون من مدرسة فرانكفورت التي تشكلت في ثلاثينات القرن العشرين . اما بالنسبة للوضعية المنطقية فإن لوكاش المنتمي الى هيجل ، لم يجدها سوى حصيلة حتمية للكانطية الجديدة والتي سبق له ان انكرها قبل عام ١٩١٤ . وبلغة التأريخ الفكري يبقى من المهم الإشارة الى ان كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » (١٩٢٣) تصادف صدوره ،

تقريباً مع كتاب لودفيج فيتجنشتاين Wittgenstein ، وعنوانه : « رسالة منطقية فلسفية » Tracatus (١٩٢٢) . وفي كلتا الحالتين كانت شهرة المؤلف نتيجة لافتراقه الجذري عن المعتقد السائد في حقله الشخصي ، ومع ذلك ، نجد ان كليهما تخلى في السنين اللاحقة عن عمله الذي ألهب مخيلة معاصريه . ولكن التشابه هنا يتوقف . فبالرغم من ان كليهما شب في ظل مملكة اسرة هابسبورغ العفنة وتأثر بالتوترات الكامنة في حضارتها المتداعية ، فمن الصعب ان يتخيل المرء شخصيتين اكثر اختلافاً من شخصية جورج لوكاش ولدفيج فيتجنشتاين .

وبالنسبة لكتاب « التاريخ والوعي الطبقي » فقد قيل بحق أن سر بقائه الوثيق الصلة بالموضوع يعود فضله الى الطريقة التي استرد فيها لوكاش البعد الهيجلي في فكر ماركس . ان النتيجة المدوية التي أحدثها داخل الحركة الشيوعية الاوروبية مردها الى امور اكثر بساطة . فالشيوعية الدولية كانت قد باشرت آنذاك المهمة الطويلة والشاقة في « بلشفة » قطاعاتها المختلفة . أي ، تحويل الجيش الذي كان مزيجاً من معارضي الحرب واشتراكيين من ذوي الميول النقابية الفوضوية ويساريين الى لينينيين منضبطين ، ومن وجهة نظر خلفاء لينين - الذين كان يؤلف بينهم احترامهم المتبادل لقائدهم المهدد مشلولاً في الكرملين إثر اصابته بنوبة قلبية ثانية في آذار / مارس عام ١٩٢٣ ، أي قبل عشرة شهور من موته الذي انهى عذابه الصامت - ليس ثمة ما هو أقل مثاراً للسرور من الظهور المفاجىء لمدرسة « غربية » شيوعية ، يمثلها منظّرون من امثال

لوكاش والفيلسوف الألماني كارل كورش Korsch والايطالي الماركسي انطونيو غرازيادي Graziadei . ان وابل الشتائم التي انهالت على لوكاش في الفترة الممتدة من ١٩٢١ الى ١٩٢٤ يعود بعضه الى العداوات الكتلوية ، بيد ان المصدر الأساسي لموجة الجنون تلك هو عقلية الشيوعيين الروس الذين اصبحوا ينظرون الى لينين وكأنه أيقونة مقدسة . ان اي انحراف عما يوصف الآن بخط الماركسية ـ اللينينية اصبح يشكل إهانة لعقيدتهم . ويبدو في الوقت ذاته شبحاً مرعباً لهرطقات يصعب ضبطها وقد اخذت تنتشر بين صفوف الشيوعيين ممن لم تتم بلشفتهم كما ينبغي . وأصبح النضال ضد لوكاش « على الجبهة الفلسفية » الشغل الشاغل للفلاسفة السوفيات امثال : أ . ديبورين وم . لوبول و ج . بامل ومفسرين آخرين لينينيين . وحتى القادة السياسيون فإنهم قد دخلوا المعترك . وفي مؤتمر الكومنترن الخامس الذي عقد في موسكو في حزيران ـ تموز (يونيو / يوليو) عام ١٩٢٤ صار بوخارين ـ الذي اصبح بعد وفاة لينين الناطق الرسمي باسم الحزب الشيوعي السوفياتي حول جميع القضايا النظرية ـ يتأسف بشدة ، عبر ملاحظة قصيرة ، على الاتجاهات الحديثة في « الارتداد نحو الهيجلية القديمة » . اما زميله زيونفييف ، وهو ديماغوجي أحمق وتافه ، لا تؤهله عقليته للدور الذي أنيط به ، فقد صب جام غضبه على اليساريين المتطرفين « الذين كانوا مثل « التطوريين » يستشهدون باسم لينين المقدس ، ويهزأون من « الاساتذة » من امثال كورش ولوكاش وغرازيادي ، ثم يعلنون بوقار ان انحراف هؤلاء لا يمكن التسامح ازاءه .

ان ما يجعل من القضية بكاملها امراً مربكاً جداً هو ان لوكاش يبرهن في كتابه عن وجود علاقة ، الى حد ما ، مصطنعة بين لينين وروزا لوكسمبورغ التي اصبحت قديسة ثورية اثر اغتيالها على يد الضباط الالمان عام ١٩١٩ بعد ان كانت حليفة سابقة للمناشفة ، وكانت تتخذ أيضاً موقفاً نقدياً من المبادىء البلشفية وتطبيقاتها . وحتى عام ١٩٢٤ لم تكن « اللوكسمبورغية » قد اصبحت بدعة كبرى ، وكذلك فإن « التروتسكية » لم تكن قد شقت طريقها بعد (مهما كان الأمر فإن لوكاش لم يظهر مطلقاً الحد الادنى من التعاطف مع « تروتسكي ») بيد ان اتجاهاً يسارياً متطرفاً كان موجوداً بين الشيوعيين الغربيين في المجال النقابي ممن لم يهضموا الفكرة القائلة بأن مجالس العمال وجدت للتصديق على مقررات الحزب ليس إلا . ان تطور لوكاش الفكري من نقابية « تشابو » الفوضوية عبر اشتراكية لوكسمبورغ الثورية وبعد ذلك الى لينين ، جعله مفكراً خطيراً ، فأهدافه السياسية الواردة في كتابه الصادر عام ١٩٢٣ وما تضمنته من استشهادات وافرة بلينين ، يمكن اعتبارها مرفوضة من وجهة النظر البلشفية السلطوية .

وبالمقارنة مع التهديد الناجم عن « الانحراف » السياسي فإن القضايا التي تضمنتها مقالات لوكاش النظرية ، والتي لا يستوعبها سوى قلة من الناس ، لا تعتبر مهمة ، ناهيك عن مغامراته في انتقاد انجلز في معالجة بعض المفاهيم المنطقية والابستمولوجية (نظرية المعرفة) .

وقد اصطدمت هذه النقطة المربكة اصطداماً مباشراً باللينينية

كفلسفة بالقدر الذي كان فيه عمل لينين في هذا الحقل « المادية النقدية والتجريبية » Materialism and Empirocriticism يلزم اتباعه بمادية انجلز الديالكتيكية . وهذا هو تفسير « مؤسس الماركسية الروسية » ج . ف بليخانوف (١٨٥٦ - ١٩١٨) الذي كان لينين يكنّ له على الدوام الاحترام الكبير بحكم مركزه كمنظِّر . وكان كلاهما من الاتباع المتشددين لما يسمى الآن بالماركسية الأرثوذكسية ، التي تعني توثيق افكار ماركس وتنسيقها ، كما فعل انجلز بعد وفاة زميله الأكبر .

لذلك فعندما قدم لوكاش في العام ١٩٢٣ تفسيراً أصيلاً للغاية يشكك فيه بفهم انجلز لكانط وهيجل و (بالتلميح لماركس) فإن غضب التقليديين - في وسط أوروبا وفي الاتحاد السوفياتي - تخطى كل الحدود . كذلك جن جنونهم بدرجة مماثلة من كارل كورش مؤلف « الماركسية والفلسفة » الذي كان ينظر الى المادية ، بشكل عام ، والمادية الديالكتيكية بشكل خاص ، على انها محاولة ساذجة للعودة الى موقف ممهد للكانطية . اما بالنسبة لكلٍ من لوكاش وكورش وأتباعهما فإنهم كانوا يعتبرون الماركسية فعلاً (وكما اكد انجلز ذلك في مقالته المؤثرة عن لودفيغ فيورباخ عام ١٨٨٨) وريثة الفلسفة الالمانية الكلاسيكية . لهذا السبب بالذات كان الماركسيون مجبرين على تجنب الارتداد الى تفكير ما « قبل الانتقادي » - اي « قبل الكانطي » - ولقد شعر لوكاش بضرورة تصحيح انجلز بالقدر الذي استسلم فيه انجلز لهذا الاغراء هنا وهناك - مطمئناً الى معرفته بأنه استوعب كلياً معنى فلسفة كانط وهيجل خلال السنوات التي قضاها في هايدلبرغ قبل الحرب . وقد

ضم كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » عنواناً فرعياً « دراسات في الديالكتيكية الماركسية » وهو بحد ذاته يعتبر دليلاً كافياً على رغبة لوكاش في تجنب التفاعل مع « المادية ». بيد ان الهجوم التشهيري فعلاً تخطى ذلك ، فلم يكتف لوكاش بالتشكيك في فهم انجلز لكانط وهيجل ، بل تمادى الى الحد الذي وصف فيه مادية عصر التنوير بأنها « الشكل الايديولوجي للثورة البورجوازية » .

ولكي نفهم لماذا كان لهذه الجملة ، التي تبدو بريئة ، وقع القنبلة على الشيوعيين الروس والأوروبيين ، ينبغي على المرء ان يستوعب الصلات السياسية بين الثورتين الفرنسية والروسية . لقد ارتكزت نظرة لينين الكلية للعالم على استيعابه للمادية الفرنسية في القرن الثامن عشر ، فكانت الماركسية تبدو له وكأنها الشكل الجديد لهذه المادية . وفي بعض الأحيان ـ كما فعل ـ على سبيل المثال ـ في « الدفاتر الفلسفية » ١٩١٤ ـ ١٩١٦ والتي طبعت لأول مرة في عام ١٩٣٢ وأعيد طبعها في الجزء الثامن والثلاثين من « الأعمال الكاملة » ـ نجده يمتدح منطق هيجل ، الذي كان قد درسه جيداً في ذلك الوقت . ومع ذلك فقد كان يبدو وكأنه لم يستوعب مطلقاً عدم تجانس طريقة هيجل الديالكتيكية مع المذهب المادي ، الذي ترعرع هو عليه . كان كانط يبدو له بشكل خاص ، شخصاً بغيضاً ، أما معالجة انجلز غير الوافية لكانط ، في مقالة له عن فيورباخ ، فقد اقنعته ـ شأن بليخانوف من قبله ـ انه ينبغي ان لا يحمل كانط وفيخته محمل الجد . اما هيجل الذي تلقى مراناً قاسياً في المدرسة الكانطية الجديدة ، قبل تحوله الى هيجل ، فكان اكثر

معرفة . ان ما فاته إدراكه ، هو انه بدخوله هذا المجال قد توصل ، عن غير قصد ، الى جوهر اللينينية كفلسفة كونية ، وكان كانط يمثل بالنسبة للينينيين ، ولباقي الماركسيين الروس من أتباعه ، خطراً دائماً ، لأن « لاادريته » فيما يتعلق بوجود عالم حقيقي مستقل عن العقل يبدو انها فتحت باباً خلفياً « للإيمانية » Fieldism أي الدين . فاذا لم يقم العقل بتصوير العالم كما هو على حقيقته ، واذا كان ثمة شيء لا يمكن معرفته - « شيء في حد ذاته » حسب التعبير الكانطي - فلا يمكن اذاً للميتافيزيقيين المثاليين ان يدّعوا بأن العلم التجريبي هو خيال لا بدّ منه . واذا ما تم التسليم بهذا الأمر ، أليس من المحتمل ان يعود النظام اللاهوتي للزحف ثانية ؟ صحيح ان لينين عدل من وجهة نظره الى الحد الذي يقر فيه أن الوعي الانساني لم يكن سلبياً ، بيد انه لم يطرح على الإطلاق جانباً النظرية التسجيلية أو النسخية في المعرفة التي التزم بها في السابق . وفوق ذلك راح يصر على الأهمية القصوى للمادية الديالكتيكية كفلسفة للطبيعة . كان على الماركسية ان تقدم تفسيراً شاملاً للكون - وإلا فكيف يمكنها الشروع في تبوّؤ مكانة الديانة الملهمة والميتافيزيقا المثالية ؟ لذلك عندما رفض لوكاش الاعتراف بأن يكون للماركسية صلة بالعلوم الطبيعية ، فإنه ازاح بذلك حجر الزاوية في البناء اللينيني . وعندما استشهد بأقوال معلمه ريكرت في أن الماركسية هي أفلاطونية معكوسة ، كان ذلك بمثابة وضع الأيدي المدنسة على تابوت العهد .

اما وصفه المادية بأنها « بورجوازية » ، فقد كان من الواضح

جداً ان كل يساري متطرف في اوروبا سوف يخرج من هذا الوصف بأكثر الاستنتاجات إثارة للمخاوف فيما يتعلق « بالهوية البروليتارية » للثورة الروسية .

وفي مقابل هذه المواضيع المتفجرة بدت تحفظات لوكاش حول فهم انجلز لكانط بريئة نسبياً ، ولكن ليس بدون ثمن لأنها وردت على لسان فيلسوف متمرس وماركسي أيضاً . وفي عام ١٨٨٨ تبنى انجلز بالفعل موقفاً يتعذر الدفاع عنه . ان حماسه لدحض ما أسماه بـ « الحبكات الفلسفية » لهيوم وكانط المتعلقة بإدراك الحقيقة دفعه الى اللجوء الى « التجربة والمثابرة » كبرهان على ان المعرفة الشاملة للعالم الحقيقي ممكنة . أما لوكاش فقد لاحظ بطريقة معقولة جداً ان هذا خارج عن نطاق « ظواهرية » كانط كلياً ، التي لم تشكك على أية حال بإمكانية التقدم اللامتناهي في اكتساب المعرفة العلمية . فقد أكد كانط على أمر يختلف تماماً وهو بالتحديد : إنه لا يمكن لأحد ، حتى لمن استطاع ان يفهم كلياً جميع الظاهرات الطبيعية الموجودة في العقل ، ان يحل المعضلة الكامنة في تفكير الإنسانية ، وهي ان نظرته للعالم تتم بمساعدة جهاز عقلي يفرض أشكاله (المقولات) على المادة الأولية للتجربة . هنا كان يعود سوء الفهم الى فشل انجلز في متابعة هيجل في طريق يقود الى الرجوع نحو العقلانية الطبيعية لليونان (اسبينوزا) ، وهي عقلانية امتدحت العقل لقدرته على استيعاب طبيعته الحقيقية التجريبية .

فاذا استثنينا هذا الأمر ، فإن الاختيار يكون بين « ظواهرية » كانط ووضعية العلوم الطبيعية والاجتماعية التي رفضت التمييز بين

الظاهرة ومفهوم الشيء كما يبدو للعقل المحض ، أي بين مفهوم الأشياء التي تخصنا والأشياء في حد ذاتها . ومن المحتمل ان يتحول المرء اذا ما أعطي الخيار بين هذه وتلك ، إلى « الواقعية الساذجة » التي نادى بها السكولاستيكيون ، وهؤلاء يعتبرون المشكلة برمتها غير موجودة . وفي السنوات اللاحقة اخذ بعض الفلاسفة الكاثوليك يعاملون التومانية (فلسفة توما الأكويني اللاهوتية) واللينينية كحليفين محتملين في وجه الهيجلية الوضعية والكانطية على حد سواء . ومع ذلك فإن السكولاستيكية الواقعية والديالكتيكية المادية أكدتا على وجود عالم موضوعي مستقل عن العقل . ومهما كان تقييم المرء لهذا المذهب ، فإن أصله السامي يعود الى ايام أرسطو . ولو كان اهتمام الفلاسفة السوفيات يقتصر على مسائل الإدراك ، لما تسببت هرطقات لوكاش في أرقهم ليالي طويلة .

لا شك ان ذلك لم يكن كل ما في الأمر ، فالمادية لها معنى مزدوج ، وقد ينظر اليها بأنها تعني حقيقة العالم الخارجي ، ولكن بالنسبة لانجلز فقد كان لها معنى آخر أيضاً هو اولوية « المادة » كجوهر مطلق في عملية تكوين الكون . بهذا المعنى لا تعود « المادية » نظرية للمعرفة ، بل تصبح نظرية غيبية عن العالم . إنها تؤكد على أن المادة أو (الطبيعة) تسبق الروح . أو ان الروح فيض أو انبثاق Emanation من المادة . ومثل هذه التأكيدات لا يمكن إثباتها أو دحضها . فقبولها يجد مخرجاً له إما في فعل الإيمان الديني أو في معاداة الدين . وعندما أعلن انجلز أنه تبنى مع ماركس « المادية » كنقيض « لمثالية » هيجل فإن ما عناه هو انه لم

يكن لديه ولدى ماركس نظرية تختلف عن نـظرية هيجـل في المعرفة ، بيد انهما اعتبرا « المادة » بمعنى ما ، أهـم من « الروح » .

أما السؤال فيما إذا كان قد سبق لماركس بالفعل ان قال شيئاً من هذا الكلام فهو مسألة ينبغي ان لا تحظى باهتمامنا هنا ، بيد ان انجلز اعتنق بالتأكيد هذه النظرة فيما لم يحملها لوكاش عام ١٩٢٣ .

إن ما نادى به لوكـاش ، في الأقسام الأسـاسية من كتـابه « التاريخ والوعي الطبقي » هو نظرية ديالكتيكية حقيقية تقـوم باجتثاث الخلاف السخيف بين الماديين والـروحانيـين . ويمكن تلخيص وجهة نظره بالقول ان المادية والروحية همـا أطروحـة ونقيضها ، وذلك لخلاف يعود الى عدم القدرة على تخطي الانفصام بين الذات والموضوع . والحل لا يكون في إيثار الواحدة دون الأخرى ، بل يتجاوز موضع الخلاف ، وهذا يتم بالسير على خطى ماركس في معالجة التطبيق على أساس أنه الاتحاد المادي بين الفكر والواقع .

أما بالنسبة لمعاصري لوكاش الماركسيين فقد كان لوكاش بطرحه هذه المفاهيم يرود في أرض بكر أو يحيي في الوقت نفسه نمطاً من التفكير هو جزء لا يتجزأ من الفلسفة الالمانية الكلاسيكية . ومن الضرورة بمكان أن نكون واضحين حول دلالة هذا الأمر بالذات . فقد انقضّ نقاده على ما أسموه « هيجليته » وراحوا في الوقت نفسه يؤيدون ، الطريقة الهيجلية الكامنة في كتابات انجلز الاخيرة ، ولا سيما كتابه « ديالكتيك الطبيعة » Dialectis of Nature فثمة شيء

من المواربة في وقفتهم كمدافعين عن العقيدة المادية ، اذ لا يمكن للمثقفين منهم أن لا يكونوا على بيّنة بأن مفهوم الديـالكتيك الطبيعي قد اقتبسه انجلز من كتاب « المنطق » للمثالي الأعظم هيجل . لقد أحيا انجلز ، بعودته الى هيجل ، مشروع « فلسفة الطبيعة » الرومانطيقي .

ان السؤال فيما اذا كان اتبّاع هذا النمط في التفكير يعني شيئاً بالنسبة للمفكر المادي ، هو سؤال يختلف اللينينيون حوله ، وهذا أمر معروف عنهم . وفي عصرنا الحاضر نجد ان المحنكين منهم يميلون الى تحاشي الوقوع في محاولات بناء نظرة شاملة الى الوجود . فمثل هذه المغامرة تعني العودة الى الفكرة الهيجلية القائلة بأن « الكينونة » و « الوعي » هما متطابقان في النهاية . واذا كان الأمر كذلك ، فمن المعقول ان يرد عنصر الوعي الذاتي الى الطبيعة ، ولكن بهذا المعنى نكون قـد تخلينا عن المـادية بـالمعنى الضيق للكلمة . من هنا فإن أولئك النقاد أيًّا كانوا الذين هاجموا لوكاش بعنف عام ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ بسبب إدخاله مفاهيم مثـالية الى الماركسية هم دون مبالغة ، متذبذبون وتافهون .

ومع ذلك فإن هذه الحالة لا تتطرق الى جوهر الخلاف من الناحية النظرية . فبالرغم من ان كلا الطرفين كان يلجأ الى حجج مأخوذة عن ماركس وهيجل ، فقد كان هناك فارق كبير في فهمهم النسبي لمعاني هذا الميراث الفكري . فالفلاسفة السوفيات يعتبرون الماركسية نظرية « علمية اشتراكية » بالمعنى الـذي أثبتته كلمـة « علم » خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٨٠ وعام ١٩٢٠ على يد

انجلز وكاوتسكي والممثلين الآخرين للمعتقد الديمقراطي الاجتماعي : انها طريقة نظرية تقوم على التمييز - المألوف لكل باحث علمي - بين العالم الحقيقي « للواقعة » الموضوعية وبين الافكار « الذاتية » التي يحملها الأفراد حول الواقع الذي يواجههم ويحيط بهم . ان كل من نشأ على هذا التقليد يسلم بداهة بأن العلم يعترف بالتباعد الجذري بين الحقيقة الهشة القاسية والمتماسكة وبين احلام اليقظة التأملية . وليس في هذا المقام من فارق اساسي بين تلامذة انجلز الديمقراطيين الاجتماعيين وبين الماركسيين السوفيات نظراً لأن لينين انتقص من قدر كاوتسكي كمادي لا نفع منه . ان نشاط لينين كان يقتصر على السياسة ، فلم يترك اثراً عميقاً باكتشافه المتأخر لهيجل (عام ١٩١٤ - ١٩١٦) ولا بإندفاعه الخاص لإعطاء التاريخ « دفعة » آنية في « علميته » الأساسية . كانت النظرية بالنسبة اليه تعني شيئاً والتطبيق شيئاً آخر ، ولكي يكون التطبيق فعالاً كان لا بد له أن يندرج تحت طائلة العمليات السببية التي من المفترض ان تعمل في الطبيعة والتاريخ على حد سواء .

ان ما عارضه لوكاش في عام ١٩٢٣ بالنسبة لهذا التباعد الميكانيكي بين موضوع التاريخ (الحزب) ومادته (الجماهير) هو الفكرة التي تقول بأن البروليتاريا ، بوصفها الطبقة الثورية في اجلى مظاهرها Par excellence محتوم عليها ان تحرر البشرية اثناء قيامها بعملية تحرير نفسها من نير الرأسمالية . وباستثناء استخدامه لمصطلح التشيؤ Refication عوضاً عن الاستلاب Alienation ،

وهو مفهوم أصبح شائعاً في الذهن العام بعد مرور عقد من الزمن على انتشار كتابات ماركس ، فإن لوكاش قد تحول بشكل جذري نحو الموقف نفسه الذي وقفه ماركس عام ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ . لقد تجلت أصالة ماركس الشاب خلال تلك السنين بإيمانه ، فقد كان يؤمن بأن مجرد ومضة من النقد الذاتي المتفحص كفيلة بأن تشعل الغابة الثورية التي تطمسها الظروف اللاإنسانية التي فرضت على حياة البروليتاريا الأولى . ان « النظرية » النقدية عندما تمكن المضطهَدين من اكتساب وعي كافٍ بدورهم ، فإنها تترجم نفسها الى تطبيق ثوري وممارسة ثورية ، وهي بذلك تستطيع ان تنشر رأيها التأملي (الفلسفي) . لذلك اصبح للوعي دور يختلف كلياً عن الدور الذي خصصته له المدرسة الوضعية العلمية في أواخر القرن التاسع عشر . فقد تطور من مجرد كونه « عاكساً » لعملية مستمرة ، الى مهمة « تحويل » الوضع التاريخي الكلي الذي كان مدفوناً فيه ، وقد استطاع ان يفعل ذلك بسبب توافر ظروف معينة اكتسبت فيها الثورة« الفكرية » صفات القوة المادية .

افترق لوكاش عن الماركسية بعد ان احدث تأثيراً في العودة الى هذا الموقف من ماركس . وراح يضاعف من هجومه بأن رفض ان يقر بالنظرة « المادية » باعتبار الإدراك مرآة للعالم الخارجي Abbild ، وبالتالي منفصلاً كلياً عن العقل البشري ، وهو في جميع هذه الحالات يمكنه ان يدعي بأنه كان مخلصاً لماركس وهيجل . ان مقولة الكلية «Totality» التي شغلت حيزاً هاماً من تفكيره شكلت جزءاً من الميراث المثالي الذي أدخله ماركس في نظريته . ان

الاكتشاف القائل بأن مؤلف «رأس المال» كان انسانياً ، وان دراساته الاقتصادية قد جسدت نقداً فلسفياً للمجتمع البورجوازي ، ما يزال في حاجة الى التصديق . الأمر الذي قوبل به لاحقاً عندما نشرت مخطوطته عام ١٩٣٩ - ١٩٤١ . ولكن في ظل غياب دليل حسي استطاع لوكاش ان يرى بحدسه محاولة المدرسة الوضعية المتعمدة للتخفي وراء ماركس في السنوات الاخيرة . ان كل هذه الأمور المشينة هي المسؤولة عن التوبيخ الشديد الذي لحق به عندما سمحت موسكو بذلك . ان ما يحتاج الى الايضاح هو الاستقبال المختلط الذي تلقى به قراؤه الغربيون اعماله ، فقد كان يتوقع منهم ان يتعاطفوا مع هذا المرطوق الشهير لاسباب اخرى .

وفي الواقع لم يتحدّ لوكاش الأرثوذكسية السوفياتية الناشئة فحسب، بل تحدى ايضاً اولئك الاشتراكيين الغربيين الذين حاولوا خلال عقدين متتالين ان يوجدوا لماركس منزلة اكاديمية من خلال تقديم اعماله كمنشأة أو صياغة « متحررة من القيم » بعيدة كل البعد عن منشأ مؤلفها الهيجلي .

ان مبدأ وجوب ابقاء دراسة « الحقائق أو الوقائع » متميزة عن « الاحكام القيمية » هو مبدأ عزيز ، ليس بالنسبة لعلماء الطبيعة فحسب ، بل بالنسبة لعلماء الاجتماع ايضاً ـ على اختلاف نزعاتهم السياسية ـ والذين كانوا يتطلعون الى التقدير المهني في محيط العالم الاكاديمي . ان الاساس الفلسفي لهذا الفصل الصارم بين « الحقائق » و « القيم » جاء من طرف المدرسة الكانطية الجديدة ،

والتي كان لها أتباع متنفذون في صفوف الاحرار والاشتراكيين على حد سواء . ومن بين جموع علماء الاجتماع ، كان ماكس فيبر في سنواته الاخيرة ينادي بتشاؤميته الرزينة أو الرواقية ، ويرفض الانغماس في حركة إنهاض ديني أو خلقي . ان ما يكمن وراء هذا الموقف هو الاعتقاد بأنه ما لم يكن المرء يؤمن بالألوهية ، فإنه لن يستطيع ان يتحمل معرفة حقيقة الحياة ، وهذا يقود الى القول إنه خير للمرء ان لا يتفوه بعموميات عن هذا العالم . وكان لمثل هذه العبارات ما يقابلها عند العلماء التجريبيين والمحللين الفرويديين ، بيد ان الكانطيين الجدد حققوا غايتهم بتشجيع نوع من الرواقية ، أحالت التأمل الميتافيزيقي الى العلية ، أو بالأحرى الى موطن تدريب فكري . كان من المفترض على الالتزام بالعلم أن يحمل معه تعهداً بالامتناع عن تصوير العالم بألوان تتفق مع مزاج الشاعر أو الفيلسوف المثالي البالي . وكانوا يعتبرون ان من أسوأ الافتراضات التي يمكن لمفكر ان يبنيها ـ وهو ما فعله لوكاش ـ هو التأكيد على ان التقصير الذاتي في الإدراك البشري أو الحاجز الدائم بين البحث العلمي عن الحقائق والالتزام العملي « بالقيم » يمكن تخطيهما بالعودة الى فلسفة هيجل « السيئة السمعة » . وعندما شدد على أن اللاعقلانية الظاهرة للوجود لم تكن ، ببساطة ، سوى مرض ثقافي ، ونتيجة للتشيؤ الحاصل في ظل المجتمع البورجوازي ، فإن هذا التأكيد دفع الاشتراكيين ومنهم كارل مانهايم ـ الهارب الشهير من بودابست ، والذي بنى نظريته على افكار كل من فيبر ولوكاش بالتساوي ـ الى رفع اصواتهم محتجين على ذلك .

مع ذلك ، فإن هذا الرفض ، بالتحديد للثنائية أو الازدواجية بين الواقعة والقيمة ، هو الذي جعل للوكاش أهمية لدى جيل كامل من المثقفين في وسط اوروبا ممن تجاوزوا النظرة التفاؤلية التي سادت قبل عام ١٩١٤ ، ونفروا من اللاعقلانية الرومانطيكية لليمين والطوباوية الصوفية لأشباه الاشتراكيين من امثال ارنست بلوخ Bloch . لقد زودهم لوكاش عام ١٩٢٣ بما عجز أي منظر آخر عن تقديمه ، وهو تحليل ماركسي يلتزم بالحقائق ، ولا يشجب التراث الهيجلي باسم « العلم » . وحتى ظهور كتابه ، كان هؤلاء المثقفون يعتبرون الشيوعية مجرد امتداد للثورة الروسية ، التي تعتبر بلا شك حدثاً مهمّاً ، ولكن لا يبدو انها تعد بحل مشاكلهم الخاصة ، أي انها كانت مجرد حركة سياسية ترتكز الى دولة متخلفة نسبياً . إن ما فعله لوكاش ، هو انه ادّعى لها أهمية عالمية ، وفي تفسيره للماركسية اشار الى ان الثورة البروليتارية هي مفتاح لفك لغز التاريخ .

والأمر الذي جعل هذا الادعاء الكبير يبدو معقولاً يعود الى ما هو اكثر من مجرد الظروف الطارئة التي أوجدت مناخاً عقلياً معيناً ساد جمهورية فايمار . فقد اصاب لوكاش مركز اعصاب الفلسفة الحديثة عندما هاجم الفلسفة العلمية (العلموية) Sceintism والكانطية الجديدة على حد سواء . ولو كان محقاً لأصبح الايمان الوضعي بالعلم مجرد وهم بورجوازي فيما لو طبقناه على الكلية المادية المعروفة بالتاريخ . والواقع ان تأكيداً من هذا النوع يمكن ان يلقى ايضاً مؤازرة اليمين المتطرف ، وهذا ما شاهدناه في السنوات

التي قام فيها ازوالد شبنغلر بإحداثه تأثيراً على الطبقة الوسطى الألمانية . فكان كتابه « انحطاط الغرب » Decline of the West (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) بمثابة تحضير لهذه الشريحة المهمة لمجيء الرايخ الثالث . ولو كان الشيوعيون والنمساويون اقل خضوعاً لموسكو لاستطاعوا أن يجدوا في عمل لوكاش رداً فعالاً على شبنغلر وهيدجر الذي كان كتابه « الكينونة والزمان » Zein und Zeit مفسدة لعقول جيل كامل من الطلاب الجامعيين . ولو ان لوكاش تمتع بشخصية قوية تدعم موقفه عوضاً عن التزامه بالسكوت ، ومن ثم تنكره لآرائه الأولى فيما بعد ، فلربما استطاع ان يبني سداً في جه الفيضان المتدفق من اللاعقلانية .

هذا لا يعني أن المذهب الوارد في كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » هو مذهب محصن ضد النقد . ان رسالته السياسية ـ المأخوذة عن روزا لوكسمبورغ ومن ثم عن لينين ـ تجاهلت الظرف الحاسم الذي سوف تواجهه « الطبقة البروليتارية الثورية » ، بالمعنى الذي فهمه ماركس ، في المرحلة الأولى من التطور الاجتماعي ، ولكن رغم عدم كفاءة لوكاش كمنظر سياسي، فقد رفع النقاش الى مستوى اصبحت فيه الماركسية الهيجلية تؤخذ بجد من قبل عدد كبير من المفكرين في اوروبا . ان ما واجهوه هنا هو تراثهم الثقافي الخاص خالصاً من شوائبه المثالية ، ومطعماً براديكالية تجعله منافساً جدياً لاجتذاب الانتلجنسيا التي جنحت مؤخراً بسبب انحلال الليبرالية وتعفن الايمان الديني . وبالعكس لم تستطع المادية السوفياتية ان تزعزع من قناعة الألمان المتعلمين بأن الروس لا

يفهمون من الفلسفة شيئاً وبأنهم متخلفون خمسين سنة الى الوراء .

ولكي نتفهم حقيقة ما كان يجري خلال تلك السنين ـ ليس بالنسبة للوكاش فحسب وإنما بالنسبة لحضارة بأكملها كانت على وشك الانهيار الى حضيض العدمية الثقافية والسياسية ـ يتحتم علينا ان نباشر معالجة الفلسفة الخلقية . عندئذٍ سوف نـواجه لوكاش المتأخر ونحن في حالة استعداد (لا سيما لوكاش بوصفه مؤلف كتاب « تدمير العقل » من بين كتب أخرى ، وهو أسوأ كتبه ، إطلاقاً ، ومع هذا فلا ينبغي إهماله) .

ان مقدمة كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » عام ١٩٦٧ لا تساعد ، اجمالاً في إلقاء الضوء على هذا الموضوع . وكما يخبرنا لوكاش عن الكتاب بقوله انه :

« قد يمثل أعمق المحاولات في حينه لتحقيق المظهر الثوري من ماركس عبر تجديد ديالكتيك هيجل وطريقته والمضي بهما قدماً . ان ما جعل توقيت الفكرة صائباً هو الظهور المتزامن داخل الفلسفة البورجوازية لتيارات تسعى لاحياء هيجل . ولكن هذه التيارات أو النزعات من ناحية اخرى ، لم تنطلق من منطلق قطيعة هيجل الفلسفية مع كانط ، وهي من جهة اخرى وقعت تحت تأثير ديلثاي فقامت بإنشاء جسور نظرية بين الديالكتيك الهيجلي واللاعقلانية المعاصرة » .

وتلي هذه الفقرة معالجة قصيرة ومستخفّة لكتاب كارل لوفيث Lowith « من هيجل الى نيتشه » حيث يرسم لوفيت صورة كل من

مـاركس وكيركجـارد باعتبـارهما « ظـاهرتـين متوازيتـين انبثقتـا نتيجةانحلال الهيجلية » . من كل هذا ، فليس بوسع القارىء على الأغلب ، ان يستنتج عناصر تكوين أصالة لوكاش عام ١٩٢٣ . والجواب عن ذلك هو أنه وضع نظرية في التاريخ كانت ترمي الى حل مشكلة اخلاقية : علاقة النظرية بالتطبيق .

ونجد في فلسفة كانط ـ كما فسرها الكانطيون الجدد الذين ترعرع لوكاش بينهم ـ انفصال الفلسفة الاخلاقية كلياً عن الإدراك النظري لعالم المرئيات (الظواهري) . فلا يمكن استنتاج ما هو إلزامي او واجب خلقياً عن طريق التفكير الاستدلالي المجرد ، لأن العالم المادي اذا تيسر فهمه عن طريق الاستعانة بالمنطق العلمي ، فإن هذا الفهم لا يتحقق بالنسبة للعالم الخلقي .

ان الطبيعة (كما نادى بذلك كانط) تسلك قوانين سببية ثابتة ، بينما تكون حياة الفرد الخلقية حرة خاضعة للتقـرير الـذاتي . فالقرارات الخلقية يتم التوصل اليها أو اتخاذها عندما يتشاور المرء مع ضميره حيث تلتقي الاقوال ـ واسمى مثال عليها هو « الأمر المطلق للواجب » Categorical Imperative المنوط بالمرء تجـاه إخوانه من البشر ـ تصديقها النهائي من عالم يتخطى الظواهر وليس في متناول الفهم .

يستنتج مما سبق انه لا يمكن ان توجد نظرية في الاخلاق بمعنى الادراك الصحيح للتدرج الموضوعي في القيم حيث ترسي دعائم هذا التدرج في طبيعة الواقع . ان القرارات العملية (الاخلاقية السياسية) لا يمكن استنتاجها من اية نظرية حول العالم ـ سواء

كانت نظرية(خطأ أم صواب) صحيحة أم مغلوطة . فالحرية لا تنتمي الى عالم المرئيات وبالتالي فهي ليست مرتبطة به في علاقة سببية . فليس بوسع الاخلاقية ان تدلنا على يتوجب علينا فعله . من هنا كان الوازع النهائي للأخلاقية الكانطية هو « المثال الأعلى» - ذلك الذي ينبغي ان يوجد ، ولكنه غير موجود .

ان هيجل برفضه لهذه النتيجة - بعد ان وصل بها فيخته الى نهايتها المتطرفة ، بحيث جعلها تبدو متناقضة ، وقضى بذلك على فعاليتها من الناحية العملية - اثر في العودة الى وجهة النظر الارسطوطاليسية في أساسها . وهنا ، مرة اخرى ، ممارسة تقوم على إدراك الحقائق المطلقة المتعلقة بالانسان والعالم .

الاخلاق و « السياسة » عند هيجل يلوذان بفلسفته عن الروح ، وهي فلسفة تضع حداً لا يصعب اختراقه بين « ما هو كائن وبين ما يجب ان يكون » . لقد احتفظ ماركس حين جعل « هيجل يقف على رجليه »بهذا المنحى بالرغم من انه استغنى عن ميتافيزيقا هيجل الروحية . لذلك فإن الماركسي الذي عاد عام ١٩٢٣ الى فلسفة ماركس هو بغنى عن تمييز الكانطيين الجدد الجامد بين الواقعة والقيمة ، وبين العلم والاخلاق ، وبين النظرية والتطبيق (الممارسة) . لقد تولى التاريخ الاهتمام بكل هذه الأمور ، لأن فهم التاريخ على أساس انه من صنع الانسان يكشف خبايا الوجود الإنساني الأعمق ، (حسب تعبير معاصري لوكاش الوجوديين) . ان مثل هذه الفلسفة بشرحها للوضع الانساني على

هذا النحو ، قد وصفت على نحو مماثل الأخلاق الملائمة أو المناسبة للانسان .

كل هذه الأمور كانت واردة بشكل ضمني - والى حد ما بشكل صريح - في كتاب التاريخ والوعي الطبقي . فقد كانت بمثابة التحدي للأخلاقية الكانطية واللاأخلاقية النيتشوية على حد سواء ، وعلى هذا الاساس فقط ينبغي ان ينظر اليها نظرة جدية ، وهو فعلاً ما حدث بعد مرور عقد من الزمن على يد الماركسيين الجدد فيما يسمى بمدرسة فرانكفورت الذين التفّوا حول « مجلة البحث الاجتماعي » Zeitschrift fur Sozial Forschung وأهمهم ماكس هوركهيمر وتيودور أدورنو ، والتر بنجامين وهربرت ماركوز . اما الأثر المباشر الذي أوجدته هذه المدرسة هو إحداث انشقاق في صفوف النخبة المثقفة الماركسية في شرق أوروبا ووسطها . ولو كان لوكاش على حق ، لترتب عن ذلك ان يعامل التراث المثالي الألماني بروح مختلفة جداً عن الروح التي عولج بها ، لا سيما في مقالة انجلز المؤيدة لفيورباخ .

أما بالنسبة للشيوعيين فقد كان من السهل جداً رفض الأخلاقية الكانطية التي غدت فلسفة لتلاميذ أدوارد برنشتاين التصحيحيين أو التحريفيين Revisionists في صفوف الديمقراطيين الاجتماعيين ، ولم يكن من السهل الاستغناء عن التطورية « المادية » التي كانت مثيلتها الروسية قد أجازها لينين يوم أقر كتابات بليخانوف . ولكن بشكل إجمالي كان من المستحيل على اللينينيين حقاً ان يحذوا حذو لوكاش في اضطلاعه بالتراث الهيجلي كله . فهو يرى ان في نقطة

التلاقي بين علم السياسة والأخلاق يكون جوهر الانسان على انسجام مع وجوده .

واذا ما استخدمنا اصطلاحاً هيجلياً وقلنا إن مقولة « الذات المتطابقة مع الموضوع » تحقق نفسها في العملية التاريخية من خلال التغلب على الاستلاب (التشيؤ كما يحلو للوكاش تسميته) أو المفروض على البشر بفعل الظروف المادية التي فرضوها على أنفسهم . والثورة البروليتارية هي الفعل الذي يجعل هذه العملية « تعود الى رشدها » ، وبالتالي تقترب من نهاية فعلية لكي يتلوها مجتمع شيوعي خال من الطبقات ، يعمل على « تحقيق الفلسفة » ، (وهو مصطلح مشترك بين لوكاش وصديقه الهرطوقي كارل كورش) .

ولم تكن هذه نهاية الموضوع . فتأكيد لوكاش على إمكانية وجود نظرة متميزة تستطيع استشفاف منطق التاريخ قد لمح دون ريب الى ان النتائج الفلسفية مستقلة عن النتائج المتاحة للعلماء التجريبيين في حقلي علم الاجتماع والاقتصاد ، ولدى المنظرين السياسيين . ان هذا النوع من الحجج ، عندما يستخدم للدفاع عن الماركسية في وجه نقادها ممن لا يدركون لسذاجتهم طبيعة موقفهم الشخصي المشروط اجتماعياً ، سوف يؤدي وظيفة جدلية مفيدة . ومن وجهة نظر الحزب ، فإن الخطر الكامن في ذلك كان يفصح عن نفسه في تلك المناسبات التي كان يشعر فيها لوكاش بأنه حر في ان يعلن ان حقيقة الموقف التاريخي هي كيت وكيت . وليس بالأمر المهم أن تكون خطاباته منذ عام ١٩٢٠ فصاعداً قد جاءت متناقضة مع

الارثوذكسية السوفياتية : كوقوفه الى جانب ستالين ضد تروتسكي أو مع موسكو ضد بكين (١٩٦٣) . لقد أظهرت أقواله الهرطوقية بوضوح يوم وقوع الثورة في المجر عام ١٩٥٦ ، وهو امر مبدئي بالنسبة له على أية حال ، انه يجوز التأكيد على ان الحزب (حتى لو كان هذا الحزب هو الحزب السوفييتي) يمكن ان يكون على خطأ . وبالنسبة لأولئك الذين نشأوا في بيئة غربية ، فإن شعور رجل لاهوتي بارز بأنه حر في تصحيح هيئة الكهنوت قد لا يبدو أمراً غير مألوف ، اما في بيئة يسودها جو الجدل البيزنطي كما كان الحال في موسكو القيصرية ـ البابوية ، حيث كانت السلطة السياسية لقرون طويلة هي التي تفرض القوانين ، فإن مثل هذه الادعاءات غير مسموح بها . وعندما اصبحت اللينينية عقيدة رسمية فإن أي خروج عن الأرثوذكسية كان يؤدي تلقائياً الى الخروج من صفوف المخلصين . ان الملابسات التي وقع فيها لوكاش فضلاً عن ارتداداته المفاجئة dramatic recantations هو الثمن الذي دفعه لقاء مشاركته الدائمة في حركة كان قادتها ينظرون اليه بريبة ظاهرة . ومع انه كان في بعض الاحيان يقاضيهم كأن يعلن ـ بعد مرور ٤٠ سنة على وقوع الحادثة ـ عن احتقاره لهم وعن الأهمية التكتيكية المحضة لانتقاداته الذاتية وإذلاله لنفسه ، إلا انه إجمالاً كان يؤمن بعقائد يعاملها بازدراء تستحقه في كتابه « التاريخ والوعي الطبقي » الذي يعتبر من ألمع كتبه وأبعدها تأثيراً . كانت فلسفته هي بيت القصيد ، وقد أدى ارتداده عنها الى فقدانه عنصراً من عناصر التقليد الهيجلي ، والذي كانت خسارته التاريخية تفصح عن نفسها من خلال عمله اللاحق كناقد للأدب .

الفصـــل الخامـــس

ان أي ماركسي ، يولي أدنى اهتمام للمعضلات الفلسفية لا بد وأن ينطلق من النظرة القائلة بتمحور التاريخ حول الذات الإنسانية والتي ورثها كل من ماركس وانجلز عن « كانط » وعصر التنوير الألماني عامة : يقف الإنسان في وسط عالم المجتمع الذي خلقه هو (اي الإنسان) ، ويضم هذا « العالم » مجال الفن الذي يعكس بعداً معيناً من أبعاد النفس البشرية . واذا كان الكاتب المتكلم عنه مديناً لعلم الجماليات عند هيجل ، فإنه سوف يسعى لربط المدرسة الهيجلية بتراث المثالية الألمانية من جهة ، وبالحركة الرومنطيقية من جهة اخرى ، ويتساءل مستغرباً كيف عبّد كتاب « كانط » في « نقد ملكة الحكم » الطريق لكتاب شيلر « الرسائل الجمالية » ، التي بدورها لم تؤثر على هيجل الشاب فحسب ، بل ايضاً على صديقه القديم ، وعدوه فيما بعد شيلينج Schelling فيلسوف الرومنطيقية الألمانية . واذا كان هذا الماركسي ، مثل لوكاش ، يعتبر المثالية الموضوعية لهيجل خطوة نحو المذهب الطبيعي لدى فيورباخ وانجلز ، فإنه سوف ينظر الى مذهب

« المثالية الموضوعية » عند كانط وشيلر بمثابة انحراف أو زيغ كان هيجل متحرراً منه لحسن الحظ ، وكانت علّة هذا المنحى في بعض النواحي قريبة من الرومنطيقيين ، بينما جسّد كانط المذهب العقلاني لعصر التنوير الألماني في أنقى مظاهره وأشدها تصلباً . وهناك صعوبة اخرى وهي : ان كانط الذي غادر مسرح الحياة في العام ١٨٠٤، كان فعلاً غير متأثر بالردة المحافظة والمناهضة للثورة الفرنسية ، والتي امتدحها هيجل على مضض . وبدت مثالية كانط في نظر ماركس كتحويل استاذي نموذجي لمذهب الفعالية الثورية الفرنسية الى تأمل ألماني ، ولكن على الأقل لم يكن ثمة شك بالتزامه « بمثل » روسو والثورة الفرنسية عامة . وكانت حماسة هيجل لروسو اشد تكتماً ، وعكست موافقته المتحفظة على نابوليون (التي شاطر فيها غوته) قبولاً مذعناً بالحكم الاستبدادي المتنور الذي حل محل التجربة الديمقراطية التي اضطلع بها اليعاقبة . ثمة شيء في موقف هيجل تجاه نابوليون يربطه بالإعجاب العلني الذي اعرب عنه لوكاش تجاه ستالين : الربان الذي قاوم العاصفة حتى في اضطراره لذبح نصف ملاحي السفينة ومعظم ضباطه . ولطالما جذب الحكم الاستبدادي المتنور المفكرين الألمان . ومن هذه الناحية على الأقل يقف لوكاش وسط تقليد راسخ الأركان في النظرة السلبية التأملية التي تحلت بها البورجوازية الألمانية المثقفة في فترة ما قبل ١٩١٤ .

ان هذه الاعتبارات ليست طارئة على لب موضوعنا ولو نظرياً ، لأن الاستقلالية الذاتية للانسان ، كمواطن وكبنّاء لعالمه هو ، هي

الفكرة الرئيسية لعلم الاخلاق عند كانط مثلما هي في علم جمالياته . ثمة خط من التفكير يمتد من « نقد ملكة الحكم » عبر كتابات فيختـه الشاب وشيلر وصـولاً الى وجهة نـظر ماركس الشاب . اذا كان الانسان مقياس كل الأشياء ـ وهذه هي الفكرة الرئيسية في جماليات كانط ـ فإن أي نـظام سياسي لا يحتـرم الاستقلالية الذاتية للانسان هو نظام يتعرض للإدانة . وانطلاقاً من هذا الافتراض فليس هناك سوى خطوة قصيرة لبلوغ يعقوبية فيخته في باكر عمره ، وهو بمثابة الأمر المألوف في التاريخ الفكري الألماني بأن راديكالية فيخته القصيرة الأجل قد تم إحياؤها على يد أتباع هيجل ، اولئـك الذين يعـرفون بـالهيجليين الشبـاب أو الهيجليين اليساريين . وهو ، لأمر مألوف ان هؤلاء المفكرين ، الذين ضموا بين صفوفهم ماركس الشاب ، كانوا في حالة تمرد ضد الجانب المحافظ والتأملي من فكر هيجل . غير ان هذا الجانب بالضبط من فلسفة هيجل هو الذي تتفتّح زهوره في كتابه « علم الجمال » .

لذلك ، فإن طريقة فهم لوكاش تفرض عليه عائقاً محدداً بقدر ما هو عاجز في ان يدفع الى النهاية التضمنات الكاملة لما يسمّى وجهة نظر ماركس البروميثية : التزامه بالمذهب ـ الفيورباخي في جوهره ـ القائل بأن الإنسان المتحرر ، المستقل ذاتياً والحر ، هو في آن معاً ، الفرضية المسبقة للفلسفة والغاية الحقيقية لكل النشاط الاجتماعي . . . الانسان هو الذات في عالم من الأشياء ، وكل ما يدل على قوته الخلاقة يعتبر خطوة نحو تقرير المصير التام الذي

يدعوه ماركس الحرية . ويكمن موطن الضعف لدى المذهب المثالي « الذاتي » انطلاقاً من وجهة النظر الماركسية ، في معالجة هذا التحرر كمجرد امنية ، بينما اظهر هيجل ان تحرر الانسان يحدث في التاريخ : ان ما هو حقيقي في نهاية المطاف (الحرية الانسانية) يعود الى مجراه عبر عملية ضرورية من الصراع والتناقض الذاتي . غير ان هذا (الحقن) بنمط من الحتمية المنطقية ، لم يقم ، إلا بازاحة كابح الاخلاقية الكانطية : وهي اخلاقية في تنازع ابدي مع الوضع البائس للعالم الواقعي . فهي لم تضعف ما كان مركزياً لكل أشكال المثالية الألمانية ـ الاقتناع بأن البشرية متجهة نحو فرض الشكل والمضمون على عالم هو من صنعها اللاواعي . فالانسان يبذل الحد الأقصى لإمكانياته ، وبينما يتفاعل حتماً ، وهو في ميدان العمل ، مع بيئة مادية محددة ، فهو حر على نحو أصيل في مجال الفن . ان الدلالة النهائية للإبداع الفني هي انطولوجية . فالفن يكشف الطبيعة الحقيقية للإنسان ككائن نوعي . ولا يمكن لدارس مؤلفات لوكاش ، في علم الجمال ، أن يغيب عنه أن نظرية التمحور حول الذات الانسانية هذه ، يمكن اتخاذها معياراً للحكم على جميع الأعمال الفنية ، وتنطوي مقولة الكلية الجامعة ، التي هي مقولة مركزية للماركسية عامة ، على أهمية خاصة بالنسبة الى لوكاش لأنها تمكّنه من ربط الابداعات الفردية بأنماط أو انواع تتطابق مع مراحل تاريخية معينة في التحرر التدريجي للانسان من قيوده المفروضة ذاتياً . ويتم تحليل « التشيؤ » (اعتبـار الاشياء المجـرّدة اشباه مادية) أو « التمدي » : Reification في كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » ضمن جزء أساسي من عمل يركز على فلسفة للتاريخ

ورثها لوكاش عن فيورباخ وماركس ، ولكنه ورثها أيضـاً عن الفلاسفة الكبار للمثالية الألمانية : كانط ، وفيخته وهيجل .

وتتمثل صلة هذا الجانب من الموضوع في انها تفرض على المفسر ، لكتب لوكاش نهجاً متعارضاً كلياً مع توقعات قراء بلغوا هذا الموضوع عبر تراجم لمؤلفه في النقد الادبي . وقد تم تأليف الكثير من هذا العمل اثناء الحقبة الستالينية وهو بذلك يشمل كمية لا بأس بها مما لا يمكن وصفه إلا بأنه من سقط المتاع .والنموذج المناسب هنا هو ما تقدمه مجموعة المقالات الصادرة في ١٩٥٠ في ترجمة انكليزية بعنوان « دراسات في الواقعية الاوروبية » . ومعظم كتاباته المجموعة في هذا المجلد هي من التفاهة بحيث انها لا تستخف بالنقد فحسب ، ولكن بالعرض البسيط . فهذه المقالات التي كتبت في أواخر الثلاثينات ـ عندما كان لوكاش يعيش في موسكو كلاجىءٍ آتٍ من المانيـا دون ان يقابـل وجوده هنـاك بـالارتياح ، ونشـرت في مجلات مختلفـة مكرسـة للدعايـة بين المتعاطفين معه ـ لا تجذب انتباه أي شخص مهتم على نحو جدي بالأدب الفرنسي أو الروسي : الموضوعتان اللتان اختيرتا بعدئذٍ بهدف تطوير التعاون الفرنسي ـ السوفياتي على كل صعيد . ويمكن قياس المستوى الفكري لهذا الخليط من الاعلان الاستهلاكي بأن الناقدين الروسيين الكبيرين في القرن التاسع عشر : فيساريون بلينسكي (١٨١١ ـ ١٨٤٨) والكسندر هرتزن (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) « هما السبّاقان للمنهج الذي تتوج باسمي لينين وستالين » . وثمة بالمثل مقالة تافهة حول علم الجمال لهيجل ، نشرت للمرة الأولى

في هنغاريا في ١٩٥١ وأعيد طبعها لاحقاً في المجلد العاشر من الأعمال الكاملة ، لا تمتدح كتاب ستالين « لمطلع عهد جديد » حول علم اللغة فحسب (وهو كتاب يعتبره لوكاش نقطة تحول في الفلسفة) ، بل تتضمن هذا النص : « ان النقد الحاد الذي اخضع له كل من لينين وستالين مجمل نظرية الأممية الثانية ، والعبقرية التي طبقا بها مبادىء الماركسية على عصر الامبريالية والحروب العالمية والثورة البروليتارية ، هما وحدهما جعلا من الممكن المضيّ في التطوير اللاحق للماركسية في ميدان علم الجمال » . وثمة شيء اكثر من ذلك بهذا المعنى في هذه المقالة - مناقشة استعلائية للتراث الهيجلي في حقل الفن - ويصدر المجلد كله في هذه الطبعة الالمانية الغربية بمقدمة (مؤرخة ، بودابست ، ايلول / سبتمبر ١٩٥٢) تمجد مرة اخرى مآثر لينين وستالين الفلسفية ، ولا سيما جولة ستالين في نظرية اللغة .

وإنصافاً للوكاش - الذي كان يعيش حينذاك في ظل أشد الأنظمة وحشية وهمجية ، والتي لم ينج من بلائها إلا بشق الأنفس - لن يقال أي شيء آخر عن هذه الممارسات البغيضة في النظامية الحزبية . كل من يقرأ مقدمات لوكاش لمقالاته الكاملة حول الواقعيين الروس (مؤرخة « بودابست ، شباط / فبراير ١٩٤٦ » و « بودابست ، ايلول / يوليو ١٩٥١ ») ، ومن ثم ينتقل الى مقدمة ١٩٦٤ في الطبعة الالمانية الغربية للأعمال الكاملة Werke يمكن ان يحكم بنفسه على ما إذا كان مسوغاً له ان يورد في الختام بعض التعليقات الاعتذارية حول « تراجعات تكتيكية سابقة ابان

مناظرات ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ » مع هذه الملاحظة الهزيلة : اذا اضفت الأن الى الدراسات القديمة حول الأدب السوفياتي دراسة جديدة متعلقة بمغزى ظاهرة سولجنتسين ، فليس ذلك ، ببساطة ، إلا استمرارية غير متقطعة لنشاطي الماضي في هذا الحقل » . ان ما كانت تنطوي عليه « مناظرات ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ » ـ التي حدثت في اوج موجة تطهير من أشد تطهيرات الحقبة الستالينية دموية ، هذه المرة في هنغاريا ـ يمكن استنتاجه من مقالة حول هذا الموضوع بقلم جوزيف رفاي المغالي في ستالينيته ـ وهو تلميذ لوكاش ، ثم اصبح فيما بعد عدوه الألد . بالنسبة لرفاي « كان صمت لوكاش حول الأدب السوفياتي « اثناء الأربعينات في هنغاريا بالغ الدلالة » . الم يقم اثناء الثلاثينات بنقد كل من « الانحطاط البورجوازي » وحركة التأليف السوفياتية ؟ أو لم يدل ذلك على انه « كان يقف على أرضية الواقعية البورجوازية الكلاسيكية ؟ » انها لتهمة خطيرة بالفعل ، خاصة وانها استعادة لانحرافات لوكاش السابقة .

ان مجرد سرد هذه الاحداث يكفي للتخلص من مفهوم استحالة فصل عمل لوكاش كناقد أدبي ـ أو بالأحرى كعالم اجتماع في الأدب ـ عن التزاماته السياسية والفلسفية . ولا يمكن جعل مفهوم للفصل كهذا أكثر معقولية على أساس ان نقاده الستالينيين والجدانوفيين Zhdanovist سعوا بين الحين والآخر لاكتشاف آثار الجمالية حتى في اقواله البالغة الاستقامة إبان الثلاثينات . هكذا استنتج « رفاي » من عدم حماسة لوكاش للأدب السوفياتي واعتقاد هذا الاخير بأنه ليس من الضروري ان يكون الكاتب شيوعياً لكي

يصف الواقع بصدق : « ان هذه النزعة نحو الموضوعانية Objectivism يمكن ان نجدها مع الأسف في مجمل اعمال الرفيق لوكاش » . غير ان العلة الحقيقية تكمن ، في رأي رفاي ، في مكان آخر : لم يتغلب لوكاش ابداً على توقه الملح لنوع من التقدمية ـ السياسية والفلسفية والفنية ـ التي كانت ديمقراطية دون كونها اشتراكية . وبتعبير آخر ، لم يتغلب ابداً على الهرطقة المرعبة لأطروحاته المعروفة باسمه الحركي اطروحات بلوم Blum (بالرغم من ان ذلك لم يتضح على نحو جلي الى ان اثارها لوكاش علانية خلال احداث ١٩٥٦)، عندما حاول ان يخرج الشيوعيين الهنغاريين من ازدرائهم العصبوي للتقليد الديمقراطي :

« ما هو مصدر هذه المفاهيم ؟ ان الرفيق لوكاش (في انخراطه) بالنضال المناهض للفاشية قد نسي النضال المناهض للرأسمالية ـ ليس خلال السنوات الخمس الأخيرة فحسب ، بل قبل ذلك بكثير . وفي كفاحه ضد الانحطاط الامبريالي حاول مجابهة الفاشية بالأشكال الثورية ـ الشعبية العامية القديمة للديمقراطية البورجوازية وتقاليدها ، مسبغاً عليها بشكل عام ، الطابع المثالي والميثولوجي . ونجدها متأصلة بعمق في النظرية الأدبية للرفيق لوكاش ، والتي تجابه أدب الانحطاط الامبريالي وايديولوجية الفاشية بالواقعية البورجوازية الكبرى ، حيث تكمن على نحو خفي فكرة العودة الى « ديمقراطية العامة » Plebeian كنظام يملك صبغة ثابتة .

ومما يثير الاستغراب وجود شيء من الصحة في هذا الاتهام ، مع انه بحاجة الى صياغته في لغة أقل عصبوية . وان ما دعاه

اسحق دويتشر الراحل ذات مرة « قصة حب لوكاش الفكرية » مع توماس مان تضيء تعاطفاً مثيراً للفضول في موقف لوكاش تجاه تلك الثقافة البورجوازية التي كان هو نفسه نتاجها . ولكن ، مرة اخرى ، لا يمكن فصل هذا الجانب من الموضوع عن التطور الشخصي والسياسي للوكاش منذ أواسط العشرينات .

وما أن هدأت العاصفة حول كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » حتى ابتدأ لوكاش يظهر بهيئة ماركسي - لينيني مستقيم الى حد ما ، وقد استطاع ان يتخطى انحرافاته الواضحة . واعقبت دراسة تقديرية للينين (١٩٢٤) مراجعة نقدية حذرة لمؤلف بوخارين حول المادية التاريخية (١٩٢٥) ، ومقالتان نقديتان مسهبتان وعلميتان حول لاسال (١٩٢٥) ، وموسى هس (١٩٢٦) : كتبت بالألمانية ، ونشرت في المجلة ذات السمعة الطيبة جداً : « أرشيف من أجل تاريخ الاشتراكية » (وهي مجلة اكاديمية اسست قبل ١٩١٤ لصالح البحاثة الاشتراكيين) ، وهي للأسف غير مترجمة . كشفت هذه الكتابات عن معرفة شاملة للتاريخ الاشتراكي ، وتقيدت بشكل دقيق بوجهة النظر الماركسية ، وشملت قليلاً من المفاهيم التي يمكن اعتبارها في موسكو ، مهما جرى التوسع في تفسيرها ، بمثابة مفاهيم هدامة ، بالرغم من ان العرض الجاف نوعاً ما لبوخارين في علم الاجتماع للمبتدئين كان يستحق بعض النقد المبرّر ، والمقالة الأكثر متعة ، وهي عن موسى هس ، جديرة بالاهتمام ، حتى في ايامنا هذه ، لدفاعها عن « الواقعية » الهيجلية في مناهضة « طوباوية » فيخته

المثالية ، وقد يمكن اعتبارها ضمن هذا النطاق معركة دفاعية في انسحاب لوكاش البطيء من الموقع المكشوف الذي كان يشغله قبل ثلاث سنوات . فقد لفتت انتباه القارىء فيها لفتته الى ذلك الهيجلي المشوق ، أوغست فون شيزكوفسكي ، واستهانت بنقد فيورباخ لهيجل ، وشرحت اخفاق هس في اكمال علم اخلاق اشتراكي وافٍ وذلك انطلاقاً من اعتناقه لانتروبولوجيا فيورباخ الوجدانية . وبالاجمال فإن هذه المقالة من اشد كتابات لوكاش اصالة ونفاذاً ، وهي على الإطلاق أعظم قيمة من العديد من أقواله التالية حول المواضيع الفلسفية . وهي ، مثل مقالته السابقة عن « لاسال » تتكشف عن قدرة اقناع منطقية وتهتم في موضوع مفقود للأسف في بعض جولاته النقدية اللاحقة والأكثر شهرة ، وهي التي كان ينبغي عدم نشرها اساساً ؟ بل ترجمتها . كان لوكاش حينذاك في الأربعين من عمره وفي أوج طاقاته ككاتب ، كان سيد اسلوب مصقول ، وواضح المعالم ، ولم يكن قد حكم عليه بعد ان يؤدي المهمة الموحشة في انتاج كتابة مبتذلة لجمهور قراء شبه أميين . ان العصر الذهبي لجمهورية فايمار قصيرة العمر لم يتزامن صدفة مع فترة هدوء نسبي داخل الحركة الشيوعية المشرذمة ، محلياً ودولياً . فقد كانت فرصة مؤاتية لمنظرّ من طراز لوكاش استوعب ان الماركسية لا يمكنها فرض وجودها على العالم الاكاديمي ، والثقافة الوطنية عامة ، ان لم ترتفع الى مستوى المقاييس العلمية الدقيقة ، غير ان وقوع الحزب الشيوعي الالماني فيما بعد في هستيرية مغالية في اليسارية ـ وهي نقل ، للنزاعات الحزبية الروسية المحلية الى اوروبا الوسطى ـ قد دمر هذه البدايات

الواعدة ، وقاد في النهاية الى اعتلاء هتلر سدّة السلطة ، على ركام الليبرالية والديمقراطية الاشتراكية والشيوعية على حد سواء .

امام هذه الخلفية ، اكتسبت محاولة لوكاش التي لم تكل خلال هذه السنوات ، والتي اعقبتها لتجنيد توماس مـان الى جانب « التقدم » ، دلالة ازدادت بروزاً إبّان كارثة ١٩٣٣ . وبعكس الذين نصبوا انفسهم وعاظاً وكانوا يشكلون القيادة الفعلية للحزب الشيوعي الالماني ـ هذا عدا مستشاريهم « النظريين » الذين خرجوا بمعظمهم من مقاه « فينوّية » ، (نسبة الى مدينة فيينا) ، وكانوا يعيشون في عالم احلام من صنع خيالهم ـ امتلك لوكاش فهماً عميقاً للتاريخ والثقافة الالمانيتين . لقـد ادرك ـ وذلك سيضحي من افكاره الرئيسية الثابتة ـ ان حركة التنوير الالمانية للقرن الثامن عشر قد هزمتها حركة رجعية مضادة ، وان النظرة الاساسية لأغلبية المثقفين الالمان هي نظرة لا ديمقراطية بشكل كلي ، وان اللاعقلانية هي خطر حقيقي ماثل للعيان ، لا تنذر بانحطاط ثقافي فحسب ، بل بكارثة وطنية . وكان مدركاً بشكل مماثل ـ وهذه حقيقة اخرى ميزته عن منظرين للحزب الشيوعي الالماني والأممية الثانية اشباه الاميين ـ بأن الاتجاه الرئيسي للثقافة الوطنية مـرتبط بمطامـح الديمقراطية والحركة العمالية . وكانت الأمة الأكثر رجعيـة في اوروبا ـ امة تكوّن وعيْها الوطني لذاتها في حرب مناهضة للثورة الفرنسية ـ تحتل افضل موقع استراتيجي واكثر المناطق دينامية واعلاها تصنيعـاً في القارة الاوروبيـة . والهبت هزيمـة ١٩١٨ العسكرية صدور كافة طبقات السكان ـ بمن فيها العمال ، الذين

كانوا قد ساندوا الحرب باكثريتهم الساحقة ، وان لم يوافقوا على الأهداف الامبريالية للغزو . وكانت المانيا ، بالمقارنة مع جاراتها الأوروبيات ، عملاقاً صناعياً ، وقد تصبح مرة اخرى عملاقاً عسكرياً . وكانت المدارس والجامعات معاقل للايديولوجية السائدة التي هي مركب من الرومنطيقية الرجعية ، والروح العسكرية العدوانية ، وعبادة القوة ، والحقد اللاعقلاني لأي شيء غربي ، ليبرالي ، إنساني ، كوزموبوليتاني أو « يهودي » . وبينما كان افراد الهيئة التعليمية في فرنسا من القمة الى القاعدة ينتمون في سوادهم الى اليسار ، شكل المدرّسون في المانيا جند الصدام للقومية والرعية . وبدا ذلك واضحاً تمام الوضوح لكل ذي عينين . لقد مثّل ذلك لعقود طويلة التذمر الدائم لديمقراطيين بورجوازيين جذريين بالاحترام امثال هينريش مان وهو أخو توماس مان « وغربي » مولع بالثقافة الفرنسية بحماس متوقد وهو أمر شاع في اوساط الفئات اليهودية الصغيرة العديدة ، ولكن الكبيرة التأثير التي كانت تمثل في العشرينات ما تبقى من الليبرالية الالمانية ، وذلك بعد ان ارتد معظم جندها الى معسكر القوميين . وكان ذلك واضحاً للديمقراطيين الاشتراكيين وهو ما يفسّر جزئياً التشبث البائس الذي تمسكوا من خلاله ببناء الجمهورية المنهارة التي اقاموها في ١٩١٨ . والواقع انهم قاموا بعمل أخرق - وفقدوا مع مرور الوقت سيطرتهم على الأقلية من العمال والمثقفين الجذريين - لم يبطل تصورهم بأنهم جاثمون على فوهة بركان . ولم تكن جمهورية فايمار فاقدة الشعبية فحسب (لم يكن بإمكانها بعد ١٩٢٠ الاعتماد على اكثرية برلمانية موثوقة) : بل ان مجرد وجودها كان يستثير غضباً

عارماً في صفوف القوات المسلحة ، ومعظم الطلاب ، وأغلبية الهيئات التعليمية في المدارس والجامعات ، وأكثرية الفلاحين والعدد الاكبر من الطبقة المتوسطة الريفية . ولم يحظ الركنان التوأمان لائتلاف فايمار الاصلي ـ الاشتراكية الديمقراطية والكنيسة الكاثوليكية ـ بأية مكانة في أعين الجيش ، وطبقة ملّاك الأراضي الارستقراطية أو الطبقة البروتستانتية العليا . ولم يكن لدى الاشتراكيين الديمقراطيين سوى النقابات ليلجأوا اليها ، وأما الكاثوليك ـ كما اظهر ذلك انتصار هتلر السهل في ١٩٣٣ ـ فبدوا على أهبة الاستعداد للتخلي عن السفينة الغارقة والالتفاف حول نظام سلطوي .

وفي ظل هذه الظروف ، كانت ثمة مبررات سليمة قصيرة الأجل وطويلته ، وذلك لمحاولة تقريب الاشتراكية من طبقة متوسطة قدنسيت أو تبرّأت من التزامها بالانسانية الليبرالية والمثل الديمقراطية للعام ١٩٤٨ . ولم يجاف الحقيقة اعداء لوكاش الستالينيون الذين اتهموه في الاعوام اللاّحقة بمحاولة إحياء تراث الثورة الفرنسية . غير ان النقطة التي فاتتهم هي انه في المانيا وجدت كل الدواعي من اجل محاولة تبرير التزام بالماركسية بشكل الانسانية الراديكالية التي مثلها سابقاً كتّاب امثال جورج بوخنر ، وهاينريخ هايني ، ونيقولاوس ليناو أو الارستقراطي الليبرالي بلاتن ـ وهو كاتب مفضل لدى لوكاش ، وقد ابرزت الساحة الالمانية في فترة ماضية ـ بين ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ـ تقدماً راديكالياً مفاجئاً على صعيد الفكر وارتفاعاً انسانياً مذهلاً في الشعر . ويدون الذهاب

بعيداً في تقديم البرهان بلا مبرر ، يمكن تبيان ارتباط هذه التيارات بالعصر الشهير للفلسفة والأدب والفن الألماني الكلاسيكي : عصر غوته ، وهيجل وبيتهوفن . وفي تبنيه لموقف انطلاقاً من هـذه الأرضية ، وفي محاولته لضم توماس مان للتقليد الانساني ، لم يكن لوكاش يقوم بمناورة دعاوية وحسب ، بل كان يحاول تثبيت ماركس وانجلز ككتّاب من الطراز الأول في الأدب الالماني . ولم ينجح اسلافه الاشتراكيون الـديمقراطيـون المنتمون الى الخط نفسـه - وبشكل خاص كاتب سيرة ماركس والناقد الأدبي فرانز مهرينغ Mehring (١٨٤٦ - ١٩١٩) - في حمل عدد غير ضئيل من الطبقة الوسطى الليبرالية على اعتناق القضية الاشتراكية . وتعمد لوكاش استئناف العمل حيث توقف مهرينغ ، ولكونه فيلسوفاً مدرباً ، لم تـراوده أية أوهـام حول الاهميـة المـزعـومـة « للبنيـة الفـوقيـة الايديولوجية » . كان لا بد من خوض المعركة الحاسمة على صعيد الخيار الواعي بين التيارين الرئيسيين داخل الثقافة الالمانية : تيار العقلانية والانسانية من جهة ، وتيار اللاعقلانية والهمجية ، من جهـة اخـرى ، وبتعبـير سيـاسـي ، كـان لا بـد من تحـويـل الانتلجنسيا . ولكن لم يكن ممكناً تحقيق ذلك بالدعاية لصمّ الآذان المعارضة . كان ينبغي وجود تحويل اصيل حقيقي ، ينطلق من وعي هدف مشترك : إحياء تقليد المانيا الكلاسيكي قبل ان يغمرها الطوفان الرومنطيقي ، والنتيجة النهائية المفجعة لهذه الاخيرة : « همجية العصور القديمة » من قبل نيتشه وذريته الفاشية .

وليس من سوء حظ لوكاش - ان نجاح هذه العملية اعتمد على

ظروف لا سيطرة له عليها ، ويأتي في مقدمتها ذهنية الشيوعيين الالمان والنمساويين والهنغاريين . ومنذ ١٩٣٠ فصاعداً خرجت نوبة جديدة من التعصب الفئوي بالمذهب القائل ان العالم عامة ، والمانيا خاصة ، قد دخلا عصر ما قبل الثورة ، تدعمهم في مذهبهم هذا اقوال من ستالين ، غير ان الذين شجعوه في الواقع المتعصبون المتجانسون الذين ظهروا « كملهمين » نظريين للحركات الشيوعية المختلفة في اوروبا الوسطى . وعزّز هذا الهراء الفارغ الاكتشاف الساطع بأن الديمقراطية الاشتراكية والفاشية « توأمان » - « وهذا ضرب من الحماقة كان قد عمل على نشرها زينوفييف في ١٩٢٤ قبل ان يتبناها ستالين وأتباعه ، حيث لا أحد منهم يحمل عبء الإلمام غير الضروري بأحوال العالم خارج حدود الاتحاد السوفياتي . ومن ضمن هذا « التحول الى اليسار » (الذي انطوى ايضاً على تجربة غريبة مع « الأدب البروليتاري » في روسيا) جهّز الحزب الشيوعي الالماني نفسه بمجلة ادبية اسمها « المنعطف اليساري » التي اصبح لوكاش مساهماً فيها عام ١٩٣١ ، بعد ان قضى سنة في موسكو في ١٩٣٠ - ١٩٣١ وتخلص من بقايا ذاته ما قبل الستالينية . وتشكل مساهماته في مجلة Die Linkskurve ومجلات شيوعية المانية اخرى في ١٩٣١ - ١٩٣٣ مادة رديئة جداً للقراء . إنها انتاج إنسان اجرى لمخه نوعاً من العملية الجراحية غير المؤلمة ، فأزال جزءاً من دماغه وأبدل به شعارات من الدعاويين في موسكو . ومثل هذه النوعية من المقالات النقدية لم تنتزع الإعجاب لدى احد ما لم يكن مسبقاً عضواً حزبياً مخلصاً . وليس غريباً ، والحالة هذه ، ان كلتا محاولتيه ، السابقة واللاحقة ، في

سبيل تجنيد توماس مان وغيره من المؤلفين الالمانيين البارزين لتأييد القضية « التقدمية » قد اعتبرتا من قبل المستفيدين البعيدي النظر مجرد مناورات تكتيكية . فإثبات ان ماركس وانجلز يندرجان ضمن التقليد نفسه لكل من كانط وفيخته وهيجل شيء ، وتأكيد ان هذا التقليد قد ورثه ككل « الكاتب الثوري البروليتاري الناطق باسم طبقته » كما وصفه لوكاش عام ١٩٣٢ ، شيء مختلف كلياً ، وشكّل شجب لوكاش في الوقت نفسه لأية محاولة ، تبغي التمييز بين الفن والدعاية كمحاولة « تروتسكية » ، خروجاً ملحوظاً على مقاييسه السابقة (اذا ما تكلمنا باعتدال). كان مهرينغ يجيز لنفسه بين الفينة والأخرى إبداء تعليق صريح حول عدم تأييد العهود الثورية للنمط الجماعي للادراك ، اذ انها تستلزم الالتزام العملي والإهمال الواعي للتفكير المنهجي . وكتب لوكاش في Die Linkskurve في ١٩٣٢ ، هادراً بالطريقة الستالينية ، الفضلى : « لدينا هنا بشكل جنيني النظرية الادبية للتروتسكية » - حيث ان تروتسكي كان قد قال ما معناه ، إنه في حين ستوجد ثقافة اشتراكية ضمن مجتمع مقبل ، فليس هناك ما يسمى أدباً « بروليتارياً » في مقابل كتابه « بورجوازية » . وكان هذا القول يعتبر هرطقة في موسكو في ١٩٣٢ ، ولكن بعد سنوات قليلة اضحى وجهة النظر الستالينية الرسمية- وعندئذٍ غَيَّر لوكاش وجهته فوراً وتخلى عن مفهوم الأدب البروليتاري وأبدل به مفهوم « الواقعية الاشتراكية » الذي كان ستالين قد جعله رسمياً حينذاك (وفقاً لنصيحة مكسيم غوركي) .

وقبل الدخول في هذا الجانب الكئيب من الموضوع ، لا يزال

هناك شيء لا بد من قوله عن قصة حب لوكاش الفكرية مع توماس مان . ويعود ذلك الى ما قبل عهده المزدهر في هنغاريا سنة ١٩١٤ . وقد بقيت هذه القصة بشكل لافت للنظر حيَّة بعد إقامته الطويلة في موسكو (١٩٣٣ - ١٩٤٤) وظهرت الى السطح مرة اخرى خلال انطلاق ما بعد ستالينية في اعقاب ١٩٥٣ . لقد كانت بالفعل امراً ثابتاً منذ أيامه الأولى كناقد .

لقد حدث أول لقاء بين لوكاش ومان في ١٩٠٩ ، واتخذ شكل عرض لرواية مان « السمو الملكي » (وهي مترجمة الى الانكليزية كملحق لمجلد صادر عام ١٩٦٤ بعنوان « مقالات عن توماس مان ») . والموضوع الأكثر جوهرية في هذه المجموعة ، « البحث عن الانسان البورجوازي » وكان قد كتبه في ١٩٤٥ ، تكريماً لعيد ميلاد مان السبعين . وفي محاولة ، ولنستشهد بملاحظات لوكاش التمهيدية اللاحقة (بتاريخ «بودابست ، كانون الثاني (ينـاير) ١٩٦٣ ») « لتوضيح موقف مانّ المعقّد بشكل جدلي ازاء الطبقة المتـوسطة ، التي تشكـل ، حسب رأيي ، المصـدر الاسـاسي الاجتماعي وبالتالي الشخصي لحياته كلهـا » ترجمـة مضللة لتعبير Burgertum « البورجوازية » ، وهو مفهوم ميت يرتبط من بعيد بالبورجوازية ، ولكنه يختلف ايضاً عن التعبير الأكثر شيوعاً . والالمان المنتمون الى هذه الشريحة - التي اوجدت ثقافة متمايزة في الدول المدينية لأوائل القرن السادس عشر ، وذلك قبل ان تقهرها كارثة الحروب الدينية ونشوء الحكم الاستبدادي - كانوا يعتبرون انفسهم دائماً اصحاب اسلوب معين في الحياة مرتبط بقيم لا يملكها

النبلاء ولا عامة الشعب . وضمن هذه السياق فإن المصطلح Bildung (بمعنى الثقافة والتهذيب والتأديب) الذي لا يمكن ترجمته كلية لا يعني « الثقافة » ، بل بالأحرى يحمل معنى مشابهاً للنضج الفكري والاخلاقي . فالـ Bildung تحقق هدفها عندما تصل الى نقطة حيث ان الفرد ـ يتألف عالم المواطنين Burger من افراد ، وهو مفهوم لا يعني شيئاً البتة لملاك الأراضي الارستقراطيين أو البروليتاريا ـ ليس متمكناً من الاعتماد على نفسه أقتصادياً فحسب ، بل اكتسب ايضاً حيازة راسخة من القيم التي تشكل اسلوب حياة الـ Burger ويوجد النقاء الحقيقي لهذه القيم في الثقافة الفايمارية الكلاسيكية المرتبطة بالاسماء السحرية لغوته وشيلر ، غير انها تشمل ايضاً شعر نقادهم وخصومهم الرومنطيقيين وفلسفتهم : هاردنبورغ ـ نوفاليس ، فريدريك شليغل ،تيك ، شاميسو ، أي . ت . أ ، هوفمن ، جان باول وآخرين ، وأي شخص ليس ملماً بهذا العالم الادبي الفلسفي يعرف بانه Ungebildett (غير مثقف ومصقول التربية) ؛ وبذلك لا يستحق ان يسمى Burgertum ، وبالرغم من انه قد يكون حائزاً على المكانة الاجتماعية الاقتصادية المستلزمة ، لا يعني ذلك انه ينبغي على المواطن Burger ان يكون صاحب ملكية ، بالرغم من ان Bildung und Besites (الثقافة والملكية) يترافقان كلاسيكياً . وكان من شأن شخصيات افراد اسرة فورسايت في رواية غالز وورثي(*) ان يجري اعتبارهم بمثابة افراد محظوظين على نحو

(*) Galsworthy (جون غالزورثي) : ١٨٦٧ ـ ١٩٣٣ روائي وكاتب مسرحي انكليزي .

استثنائي من الطبقة الكبرى من المواطنين سكان المدن أو طبقة النبلاء . ولأجل غاية عملية ، فغالباً ما يكون الـ Burger موظفاً مدنياً ، استاذاً جامعياً ، رجل دين أو احد افراد المهن الحرة . وما يميزه عن الـ Kleinburger ، البورجوازي الصغير ، وحتى بدرجة اكبر عن الناس العاديين ، إنما هو اسلوب حياته الذي بدوره يتركز على « قيم مثالية » بالاضافة الى القيم المادية الاكثر شيوعاً .

ومن البديهي ان ذلك كله وجد ويجد له نظيراً في مكان آخر . وما يجعل المؤثرات الأعلى للثقافة الالمانية في القرون الثلاثة الماضية فريدة هو كونها قد زودت على وجه الحصر تقريباً بقضايا الـBurgertum . ولم تكن الحالة هذه بالتأكيد قائمة في بلدان أوروبية اخرى . فلا الأدب الاليصاباتي(*) ولا الثقافة الفرنسية للعصر الكبير يمكن وصفهما كبورجوازيين ، بينما Kultur و Burger مصطلحان متداخلان ومترابطان . وبالقدر الذي امتلكت فيه المانيا التي نهضت من ركام حرب الثلاثين عاما (١٦١٨-١٦٤٨) ثقافة ، فإنها كانت ثقافة الـBurgertum . وان المأثرة الجوهرية لهذه الثقافة كانت مأثرة بورجوازية من البداية حتى النهاية (بالرغم من وجود بعض الانصار الارستقراطيين للحركة الرومنطيقية مثل هاينريخ فون كلايست Kleist) . وحتى جماعة المعجبين بالقرون الوسطى ، التي خربت الادب الالماني بين ١٨٢٠ و ١٨٥٠ ، كانت بورجوازية : فالارستقراطية المؤيدة للبلاط كانت تفضل الى حد بعيد فرنسا القرن الثامن عشر على القرون الوسطى الجرمانية ، والنبيل الألماني الوحيد لتلك الفترة الذي يستحق ان

(*) متعلق باليصابات (اليزابيث الأولى ملكة انكلترا ١٥٥٨ - ١٦٠٣) .

يعتبر شاعراً كبيراً - اوغست فون بلاتن - كان بيرونيا وليبرالياً سياسياً . وتوافق اسلوبه النيوكلاسيكي ، ولو بطريقة افل تأثيراً ، مع اسلوب بوشكين وثقافة الطبقة العليا لروسيا القرن التاسع عشر : وهو مجتمع كان فيه المرء اما نبيلاً أو عامياً ، وليس مطلقاً Burger بالمعنى الالماني .

كان توماس مان آخر ممثل كبير لهذه الطبقة والثقافة الالمانية الفريدة ، ولا عجب ان يغتني لوكاش الذي بالمناسبة يظهر بمظهر غير محبب في رواية مان الشهيرة « الجبل السحري » (١٩٢٤) وذلك كالارهابي جيروزيت نافتا Naphta : شخصية مشؤومة يجمع بين الايمان بالكنيسة الكاثوليكية والايمان بالثورة البروليتارية . وجاء موقف مان الوطني المتحمس خلال حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . كضربة للوكاش كما سبب له نفوراً ، غير ان ذلك لم يدم طويلاً . فإن ما جمعهما اساساً كان التراث الذي وصفه لوكاش - وذلك في اعتراف شهير بالذنب (Meaculpa)(*) جرى اعلانه في موسكو بعد سنوات لاحقة - « ميولي نحو العداء الرومنطيقي للرأسمالية » : وهو دوران تكتيكي حول المعنى يهدف الى تجنب أي ذكر لنيتشه . اما فيما يتعلق بالمذهب الاخلاقي الشخصي ، فقد كان لوكاش قبل ١٩١٤ وجودياً ورعاً منغمساً في الصوفيين الالمان ، وفي كيركجارد ودوستويفسكي . واذا حكمنا عبر مقالته لعام ١٩٠٩ ، لم تكن سخرية مان الرومنطيقية محببة كلياً للوكاش ، فبينما عزا الى مؤلف رواية « آل بودنبروك » (« عائلة

(*) Mea culpa = الذنب ذنبي .

بودنبروك ») « شعوراً بالانسلاخ عن المجتمع النبـاتي الطبيعي والتوق اليه » ، اقترح ايضاً بأن هذه السخرية « تنبع من عدم الادراك المأساوي ـ الهزلي لأنواع التوق المتعددة كهـذه ، ومن المآسي المضحكة للانفصال والانعزال التي تحدث عندما يحتك توق كهذا بالحياة » . وفي الوقت نفسه ، كان لـوكاش واعيـاً حتى حينذاك للوضع الاجتمـاعي الذي هـو في اساس تصـور مان التهكمي للـ Burgertum وعالمه : « ثمة في كتابته ذلك الحس المتلاشي الآن المتمثل في الجلال البورجوازي النبيل ، ذلك الجلال النابع من الحركة البطيئة للثورة الراسخة ».

واذا ما علمنا ان لوكاش قد وصل فيما بعد الى الماركسية عبر « فلسفة الحياة التي قال بها ديلثاي Dilthey وسيميل Simmel » ، كان من المحتم عليه ان ينقب في مؤلفات مان بحثاً عن دليل على الاستياء من الطريقة البورجوازية للحياة . تمحورت كتابات مان الأولى حول ما دعاه لوكاش لاحقاً « معضلة طونيو كروغر Tonio Kroger » ـ أي علاقة الفن بالحياة ـ ، وهو موضوع رواية مان القصيرة والشهيرة Novella التي أثرت في لوكاش بينما كان لا يزال تلميذاً في المدرسة . في حين ان لوكاش البالغ قد اتخذ موقفاً انطلاقاً من ارضية مختلفة كلياً : المظهر الكانطي (أو الفاوستي) للفرد المحول العالم الذي تخلى عن النمط التأملي للوجود . وفي الوقت نفسه قاده انهماكه الدائم بنظرية علم الاخلاق الى تعريف مدلول عمل مان بأسلوب تجاوز الاختزالية الساذجة لطريقة الفهم السوسيولوجي . ومان نفسه وفر وسائل ردم الهوة باختتام مهنة

حياته الطويلة بالـ Bildungsroman (روايـة التكوين الثقـافي والنفسي) حاملة العنوان المثـير « دكتور فـاوستوس » Doctor Faustus : وهي عرض لتهكمه الذاتي الشهير ، ما دامت علاقته بغوته قد اصبحت آنذاك رمزاً انتقادياً مألوفاً . وتوصل لوكاش ، الذي كان قد ناقش الموضوعة الفاوستية الرئيسية مطولاً في دراساته عن غوته ، في ١٩٤٥ الى استنتاج ان مان هـو خليفة غـوته الشرعي :

« ان ما يقدم لنا في أعمال توماس مان انما هو المانيا البورجوازية (بالاضافة الى النشوء والطرق السابقة) . ويقدم لنا من ذلك القضايا الداخلية ، وبينما تنحو دياليكتيكياً منحى امامياً ، فهي لا تستدعي منظوراً مستقبلياً طوباوياً نحو الواقع الحالي . وليس هناك أعمال واقعية شهيرة قليلة مصاغة بهذا الشكل . وسأذكر فقط روايات فيلهلم مايستر Wilhelm Meister لغوته . ومهما كان مان قريباً من غوته ، فإنه هنا نقيضه المحوري » .

وهذا الثناء بمناسبة عيد الميلاد سبق نشر Doctor Faustus في أواخر ١٩٤٧ : « ذلك العمل الرائع حيث اكملت فيه الرواية التثقيفية المتنامية Bildungsroman مسارها المحتم تاريخياً بدءاً من التفاؤل المقيد لغوته الناضج الى الاذعان الفلسفي لتوماس مان ، مـواصـلاً العمـل عـلى الفكـرة الـرئيسيـة لفـاوست في منفـاه الكاليفورني المريح خلال الحرب العالمية الثانية . وفي عام ١٩٤٨ ، في مقالة تحمل عنواناً ذا مغزى : « مأساة الفن الحديث » اصبح لوكاش اخيراً عميق التمكّن في هذا الجانب من الموضوع . وبعد

المقارنة المحتومة وبالأحرى المتبدلة آنذاك (« ان تطور توماس مان العام يحدث بشكل مثير على نحو متوازٍ مع تطور غوته ») ، مضى لوكاش لكي يستخلص العبرة الاخيرة الملائمة :

« وهكذا فإن فترات القضاء والقدر في المجتمع البورجوازي تحدد الطريق الخلاق لأشهر كتّاب المانيا البورجوازيين . وتنتهي مأساة « فاوست » لغوته بمشاهد في « السماء » ، وهي شيء ملموس حقيقي لأنها تنبع من امل طوباوي في تجدد الانسان وتحرره انطلاقاً من اسس اقتصادية ومبادىء أخلاقية اجتماعية ، اما « فاوست » مان ، فإنه مأساوي في جوّه العام لأن هذه الاسس على وجه الضبط قد تقوضت وتحطمت » .

ويمكن مقابلة هذا الحكم التافه بتقديم مان نفسه لفكرته الرئيسية :

« ان التعاقد مع الشيطان اغراء الماني قديم ، ولا بد لرواية المانية مستوحاة من آلام السنوات القليلة الماضية من ان تأخذ هذه الدلالة المرعبة موضوعاً لها . وحتى في حالة الروح الشخصية لفاوست ، « فالروح الشريرة » هي شيء زائف في كبرى قصائدنا . لنبتعد عن التفكير بأن المانيا قد التصقت باستمرار بالشيطان . . . لنوقف كل هذا الكلام حول نهاية التاريخ الالماني من الآن فصاعداً ! ليست المانيا مطابقة للفترة التاريخية القصيرة والمشؤومة التي تحمل اسم هتلر » .

لقد اعتمد توماس مان الوطني الالماني على تفهّم حدسيّ لشعبه

مما ينسف أدوات لوكاش السوسيولوجية .

ويضحي التباين اكثر جدارة بالاهتمام حيث بدت اخيراً ارضية مشتركة سياسياً . فتوماس مان الذي كان قد اصبح بعد الحرب نصيراً حازماً للديمقراطية الليبرالية ـ ومواطناً اميركياً ، والذي ذهب الى حد التعبير عن بعض النفور عند التفكير بأن عليه زيارة المانيا مجدّداً ـ برز« معادياً للفاشية » بقدر معاداة لوكاش ، وان يكن بالمعنى الغربي للتعبير . وقد ناقش مان ملاحظات لوكاش حول مأساة الـ Burgertum الالمانية . وبالفعل استخدم احيانا لغة مماثلة تقريباً . غير ان المفهوم القائل بأن ما ألمّ بالمانيا كان بكل بساطة فشل التجربة الوجيزة مع الديمقراطية الليبرالية في ١٨٤٨ استوقفه كمفهوم ساذج بشكل لافت للنظر . اذ ان توماس مان كان يعرف مواطنيه جداً في هذا المجال . وهكذا استشهد على سبيل الاستحسان بهرمان هسه Hesse لجهة ان الالمان « يصعب التعامل معهم كأمة سياسية ـ اريد التبرؤ منهم كلياً » . اما المفهوم القائل بأن « التعاقد مع الشيطان » له جذور تمتد الى ما قبل العصر الحديث ـ فماذا يمكن لهذا النوع من الكلام ان يعني للوكاش ، وهو الذي توقف البعد الديني بالنسبة اليه عن امتلاك أية دلالة ؟ ولا بد لقارىء دراساته عن الأدب الالماني من ان تستوقفه تلك اللامبالاة تجاه أي شيء سابق للقرن الثامن عشر الاخير . ويبدو ما جرى خلال حركة الإصلاح الديني ـ غير التمرد الفلاحي الوجيز عام ١٥٢٥ ، الذي خصص له لوكاش ، مقتفياً اثر انجلز ، عناية متكافئة ـ انه لم يطرق وعيه . وكان من شأنه ان يأتي بعمل افضل

لو استعان بمخطوطات ماركس حول الموضوع : خاصة المقطع الذي يقابل فيه ماركس بين سيباستيان فرانك القائل بوحدة الوجود و « الاصلاحيين الجمهوريين السويسريين » وبين الرجل الذي دعاه بـ « لوثر المتعصب على نحو احمق والمؤمن بالشيطان » : Der dumn

ويضيف معلناً بين هلالين : « انه مبتذل » . وعندئذٍ استطاع لوكاش ادراك ان الكارثة الحقيقية التي اصابت المانيا في تلك الأيام ليست فشل تمرد الفلاحين ذوي القدر المشؤوم ، بل هزيمة ما اصطلح على تسميته المؤرخون المعاصرون بـ « الإصلاح الجذري » .

سواء أكان لوكاش يناقش هيغل ، أو غوته ، أو توماس مان ، أو الرومنطيقيين أو نيتشه ، فهو يقيم بشكل ثابت تمييزاً مطلقاً بين العقل واللاعقل . ويركز « غوته وعصره » ـ وهو مجلد متمم للمقالات عن توماس مان ـ على الأطروحة القائلة بأن حركة التنوير للقرن الثامن عشر بلغت أوجها في الثقافة الفايمارية ، وكل قول بأن ممثلها البارز الرئيسي كان يضمر شكوكاً ازاء قيم الانسانية والعقلانية يصرف النظر عنه كجزء « من أسطورة غوته الرجعي » ، وهي هرطقة « تنبع من النقيضة Antithesis الميكانيكية بين العقل والشعور ، وبذلك تصل الى اللاعقلانية المزعومة للأدب الالماني . . . » وأقصى ما يمكن ان يقربه لوكاش هو انه حتى المؤلفون الكلاسيكيون تخطوا بين الحين والآخر حدود المنطق الصارم باتجاه ـ الديالكتيك ! « ان التسمية السائدة لحركة التنوير

الألمانية باللاعقلانية هي غالباً تقدم باتجاه الديالكتيك : محاولة لتجاوز المنطق (الصوري) الشكلي الذي هيمن حتى ذلك الوقت » . اما فيما يتعلق بالرومنطيقيين ، فإنهم (ما عدا استثناءات فردية ، امثال هايني الذي كان في موقع اليسار السياسي) مدانون بالجملة كلا عقلانيين وللهادين لتلك الفلسفة الحياتية لبنسفيلوسوفي وهي التي كان لوكاش الشاب ممثلاً بارزاً لها . والمسألة الحاسمة هي التزام الكاتب بالقضية المتمثلة في الثورة الفرنسية ، وخلافاً لكل الدلائل يضع لوكاش غوته من ضمن اولئك الألمان الذين اصروا ـ بوجه عام وبالرغم من ارتدادات عرضية تدعو للأسف ـ على رأيهم في ذلك النزاع الكبير . وهكذا يتوصل الى استنتاجات تتعارض بوضوح مع تلك التي استخلصها توماس مان الذي (كما يلاحظ بأسى) يؤدي واجبه نحوالنظرة السائدة . اذ يرى مان في انسانية شيلر الثورية شيئاً فرنسياً ، بينما يعتبر انسانية غوته المانية على نحو نموذجي . إنه خطأ المؤسسة الاكاديمية التي رسخت على امتداد قرن من الزمن « الأسطورة الرجعية » :

« تجني الأسطورة حصاداً أغنى في تطور غوته اللاحق ابتداء من انسلاخه عن الحياة العامة ، تصل ، عبر كرهه للثورة الفرنسية ، الى غوته الذي هو من بين الممثلين الرئيسيين لفلسفة الحياة اللاعقلية الحديثة ، Lebens philosophie والأب الروحي لشوبنهور ونيتشه ، بالإضافة الى كونه المؤسس الأدبي للواقعية المضادة المؤسلبة . وهذه الأسطورة التاريخية منتشرة ومؤثرة بشكل

لا يستطيع المرء إنكار كيفية تأثيرها حتى على الكتّاب التقدميين والمعادين للفاشية .

ولكن ماذا ينبغي على المرء ان يفكر إزاء ثقافة سهلت لفلاسفة أمثال شوبنهور ونيتشه تحديد نظرتها الى الحياة لمدة قرن من الزمن ؟ حتى لو سلمنا (وهو امر ليس على أي حال بالوضوح الذي يعتقده لوكاش) ان « الاسطورة الرجعية » لا أساس لها في الواقع ، كيف يمكن تفسير نجاحها المدمر ؟ لا يجيب لوكاش عن هذا السؤال إلا بتعابير سياسية : لم تمر المانيا بثورة بورجوازية في ١٨٤٨ ، ولا بثورة بروليتارية في ١٩١٨ ، من هنا فإن الخلفية الاجتماعية المولدة لمآسيها التاريخية ـ هيمنة الـ Spiessburger (المواطن اللامثقف غير المستنير عدو التقدم) للمدينة الصغيرة مع عبادته المستسلمة للسلطة ـ لم يتم تحديها مطلقاً بشكل فعال ، غير ان امة تفوتها بانتظام شتى الفرص التي يقدمها التاريخ تبدو وكأنها حالة غريبة ، بل ربما لا أمل فيها ، وذلك بأية حال انطلاقاً من وجهة نظر « الانسانية الثورية » . ليس بمقدور لوكاش ان يحمل نفسه كلياً على استخلاص هذا الاستنتاج ، بالرغم من انه امر لا مفر منه وفق افتراضاته الهيجلية .

وليس هو مقنعاً تماماً في تناوله لذلك الكلاسيكي الآخر في الثقافة الفايمارية ، فردريك شيلّر ، الذي كرس لعلم الاخلاق بعض الدراسات المثيرة للاهتمام . ولا يمكن لأحد ان يستنتج من ملاحظات لوكاش حول الموضوع ان شيلر في ١٧٩٣ اعتقد ان الثورة الفرنسية « لم تزج من جديد ذلك الشعب التاعس فقط ، بل

جزءاً هاماً من اوروبا وقرناً بأكمله ، في البربرية والعبودية » . ولا يمكن الاستنتاج بأن نظرة شيلر الى السياسة (كنظرة غوته) قد مثلت الجوهر الخالص للكلاسيكية الفايمارية : ازدواج القيم الارستقراطيه والبورجوازية . ان عالم الاجتماع الماركسي لوكاش يتعامى على نحو مثير عن أكثر الأوضاع الاجتماعية وضوحاً عندما تتدخل مع تصوراته المسبقة .

ويقدم علم اخلاق شيلر بالمثل مشكلة . فلوكاش ورث كره ماركس « لمثالية » كانط الأخلاقية التي قدمت بالمقابل مبادىء متحررة من المادة في وقائع الوجود الفجة . وشعر لحسن الحظ بقدرته على إبانة ان تحدر شيلر الفكري من كانط لم يمنعه من تجاوز الحدود الضيقة لنظرية كانط الناقصة في الفن ، مستبقاً بذلك بعض جوانب « المثالية الموضوعية » لدى هيجل ، التي كان لها على الأقل بديل واقعي وان يكن منطوياً على التعمية والألغاز : المسار الذاتي لفعالية التطور العقلي في التاريخ . ومع ذلك ، وكما أشير آنفاً ، كانت هذه المثالية الموضوعية بالذات هي التي تشكل اساس تفكير شيلنغ الشاب ، ليصبح فيها بعد اللاعقلاني الرئيسي بين فلاسفة المانيا والمصدر الرئيسي للحركة الرومنطيقية بأكملها لجهة الناحية الفلسفية . وبالاضافة فإنه يشهد على صعوبة رسم خط دقيق بين الحركتين الكلاسيكية والرومنطيقية الالمانيتين والتطور الفكري لماركس الشاب . هل كان مؤلف « المخطوطات الباريسية ، ١٨٤٤ » الذائعة الصيت يتبع تقليد شيلر أو اقتداء النقاد الرومنطيقيين ، فهذا الاخير عندما رسم مخططاً لرؤيته الشهيرة

شكل حياة إنسانية ، حيث يتطابق فيها الوجود والجوهر ، ويتمازج العمل واللهو ، وتعلن نهاية« الاغتراب أو الاستلاب » .

دعنا نحاول ان نعيّن بدقة المصدر النظري للصعوبة . يقف لوكاش كما رأينا ، الى جانب العقلانية وضد الرومنطيقية وضمن التقليد العقلاني يؤيد هيجل وغوته ضد كانط وشيلر . لقد أكد هيجل ان العالم لا يدرك إلا بالعقل ، وإن بإمكاننا معرفة الواقع كما هو « بذاته »، وان العقل لا يتوصل الى المعرفة المطلقة. ويشكل ذلك في التعبير الفلسفي « المثالية الموضوعية » مقابل لا ادرية كانط وخلفائه ، ومع ذلك فإن شيلر ، بالرغم من كونه كانطياً في الفلسفة الاخلاقية ، فإنه سبق في بعض النقاط علم الاخلاق لدى هيجل . وكان تعريف هيجل للجمال بأنه « المظهر الحسي للفكرة » متوافقاً مع تصور شيلر اكثر من توافقه مع طريقة الفهم الأكثر تجريبية لدى غوته ، الذي تجنب بالرغم من افلاطونيته الجديدة الحدسية ، التأمل الميتافيزيقي . ويمثل الفن بالنسبة الى هيجل منحى للمعرفة « الحسية » بالمطلق،عالم الجوهر المحجب بالمادة وقد سبق لهذا الجانب الناسج على منوال افلاطون Platonizing side ان اجتذب لوكاش الشاب واغراه على التخلي عن السأم الرومنطيقي أو التبرم بالعالم أيام كان على مقاعد الدراسة : اذا كانت الحقيقة عن العالم ممكنة الادراك ، فليس ثمة داعٍ لتعذيب النفس باللاعقلانية الدينية وفقاً للنمط الكيركجاردي . وكان لوكاش الناضج ، بعد ان اضحى ماركسياً ـ لينينياً ، لا يزال يؤكد اننا نعرف العالم « كما هو » ، غير ان البعد

الذي يمكن ادراكه قد تقلص الى العالم التاريخي للانسان . وهذا العالم من صنع الانسان يمكن ادراكه بالعقل فقط . وتقع بعده الطبيعة . وهي ميدان العلوم الخاص . لقد تم التخلي عن الفلسفة التأملية . غير ان علم الجمال لدى هيجل ـ ولذلك نظرية لوكاش في الفن استطراداً ، بقدر ما يظل هيجلياً ـ هو ميتافيزيقي من البداية الى النهاية . وتعريف الجمال كـ « المظهر الحسي للفكرة » هو بمثابة اعلان حول الطبيعة النهائية للواقع .

لا يظهر هذا البعد من تفكير هيجل في كتابات لوكاش النقدية ، حيث يكتفي بمعالجة المفهوم الهيجلي « للعالم العيني » المحسوس أو الملموس ، وحدة العام والخاص ، من هنا كان اهتمامه بما هو نموذجي ، لأن النموذج هو على وجه الضبط هذا التمثيل لما هو عمومي (انساني) في ما هو خاص وتاريخي ومن خلالهما . وعندما يتناول لوكاش طبيعية النوع الفني مثل علاقة الرواية بالدراما ، يعود المنهج الى الحياة ، لأنه عندئذٍ قادر على ابانة ان الاشخاص النموذجيين (النماذج) يمتلكون مدلولاً عالمياً بقدر ما يجسّدون امكانية تاريخية للطبيعة البشرية . وانه لأمر اخرق من وجهة نظر لوكاش ان يكون الرومنطيقيون الكبار ـ خاصة شيلينغ وأ . و . شليغل ـ السباقين في صياغة نظرية النماذج ، وان واقعيي القرن التاسع عشر الروس (الذين يعدون من بين أبطاله) فتنوا فيها يتصل بذلك بتقصي الدلالة العالمية لدون كيشوت ، وهاملت وفاوست وشخصيات رئيسية اخرى في الأدب الاوروبي ، ومع ذلك ، يمكن تفسير هذا الحدث باقتراح ان « المثالية الموضوعية » لدى شيلنغ الشاب لم تلطخ لا عقلانيته الدينية في اعوامه

اللاحقة . وتنبع الصعوبة الحقيقية بالنسبة الى لوكاش (النظري) كمنظر لعلم الجمال - كتمييز له عن كونه ممارساً لتاريخ الفن السوسيولوجي - من الايمان الميتافيزيقي المشترك لهيجل وشيلنغ : الايمان بأن الفن يفضي الى عالم من الكينونة هو فوق متناول الحواس . وعندما يقال ان بعض هذا الايمان يبدو في اساس تلك المقاطع من كتابات لوكاش حيث يستوعب بعمق ظاهرة الابداع الفني ، فهذا القول هو بالضرورة مجازفة في موضوع خطير ، لأن تصريحاً من هذا النوع لا يقبل البرهان . لا بد من استنتاجه ما لم يؤت على قوله ، لأن ما يستحقه ومهما يكن الأمر جديراً ، فإن اعتقاد المؤلف الحالي ان لوكاش قد احتفظ ببقية من الميتافيزيقيا المثالية بينما أخفق كلياً في دمجها ضمن اداته النقدي ، امر لا بد من التأكيد عليه .

الفصـــل الســـادس

لقد بلغنا الآن المرحلة التي لم تعد تحتاج معها الاهمية الحاسمة لفلسفة هيجل بالنسبة الى العمل الناضج للوكاش في علم الاخلاق الى الاثبات بتعابير عامة ، بل يمكن توضيحها بالتفصيل . ومع الأسف فإن الأمثلة الساطعة حقاً من هذا النوع توجد بأغلبيتها في كتابات لم تترجم الى الانكليزية . والعكس صحيح ايضاً : فمن بين دراسات لوكاش الادبية التي وصلت الى الجمهور الانكلو - اميركي ثمة دراسات تتميز بفقدان المضمون النظري . والحالة الكلاسيكية هي كتابه « الرواية التاريخية » الذي نشر اصلاً باللغة الروسية في ١٩٣٧ ، وترجم الى الانكليزية بعد خمسة وعشرين عاماً ، واعتبر فوراً عملاً رائعاً من قبـل نقاد ادبيـين سروا باكتشافهم ان ماركسياً قد قرأ فعلاً مجمل ادب القرن التاسع عشر البورجوازي. وفي خضم حماستهم فاتهم تماماً ان الكتاب يتناول الـروايـة من نـاحيـة تـاريخيـة Historicist خـالصـة - بله - تاريخانية Historical فالفيلسوف الذي يعد في أحسن أحواله من بين منظري الأدب الرئيسيين غائب ، حيث يخلي مكانه لعـالم

اجتماع يلقن قراءه الروسيين حول الخلفية الثقافية للأدب الاوروبي الغربي . اما المقالات التي جمعت اصلاً في مجلد نشر في برلين الشرقية ١٩٥٦ ، بعنوان (مساهمات في تاريخ علم الجمال ») وأعيد طبعها ، كالمجلد العاشر من الاعمال الكاملة Werke ، فهي موضوع آخر يحتوي بعضها على الاقل مواضيع نظرية على نحو اصيل . وبتعبير آخر ، انها مقالات مهمة ، بينها « الرواية التاريخية » تافهة من الاساس حتى في النواحي التي لا يفسدها الابتذال الواعي . وتقع المقالات في كتاب « غوته وعصره » في مكان ما بين الاثنين . وقد ألف الفصل الذي يتناول المراسلات بين شيلر وغوته في ١٩٣٤ ، عندما كان لوكاش قد استقر في موسكو ، ولكنه ما زال قادراً على التعبير بلغة تفي بالموضوع الذي تعالجه . وتقع مقالة « نظرية شيلر في الأدب الحديث » (١٩٥٣) دون هذا المستوى بيد انها تنجح في اثارة بعض النقاط الهامة حول علم الجمال لدى كانط وهيجل . والجدير بالملاحظة ان لوكاش في العام ١٩٣٥ لم يكن قد تخلى بعد عن مثالية « التاريخ والوعي الطبقي » وتحفل هذه المقالة بمقاطع تكرر بعض المفاهيم الاساسية لعمل ١٩٢٣ وان يكن بمستوى فكري واسلوبي ادنى ، وموشاة بهراء سوسيولوجي من النمط الذي جعله مألوفاً فيما بعد تلميذ لوكاش لوسيان غولدمان ، وعلى سبيل المثال :

« ان لمفهوم المثل الأعلى في الفلسفة المثالية كنقيض مقابل الواقع الاجتماعي التجريبي جذوراً اجتماعية . والحالة التي هي اساسية لكل الفعالية الانسانية والتي تشكل الصفة المميزة للعمل

الانساني ، اي ان الهدف يوجد في العقل قبل تحققه المادي ، تتخذ شكلاً خاصاً في المجتمع الرأسمالي فسمته الحاسمة هي التناقض بين الانتاج الاجتماعي ، والحيازة الخاصة . . . ويمنح ديالكتيك خداع الذات البطولي والضروري لنشوء المجتمع الرأسمالي دفعاً جديداً لهذه العلاقة بين الهدف وتحققه ، بين المتطلبات الانسانية من الواقع الاجتماعي وهذا الواقع بحد ذاته .

يبدو اننا دخلنا في الروتين المضجر المألوف « للواقعية الاشتراكية » ، التي لا مهرب منها للضحية السيئة الحظ . ولكن اقلب الصفحة ، تجد ان لوكاش ١٩٣٥ ما زال يواصل معركة دفاعية مرسومة بعناية تحت عين مراقبيه الستالينيين اليقظة .

« غير ان هذا النفي للمثل الأعلى البورجوازي عن اسسه الاجتماعية . . . لا يعني ان مسألة هذا المثل بأكملها ليست سوى قضية كاذبة مقتصرة على الطبقة البورجوازية دون سواها . ففي المجتمع البورجوازي يتخذ ديالكتيك أو (الظاهرة) والجوهر (الماهية) اشكالاً خاصة تماماً . ولا يتوقف الواقع الموضوعي لهذه العلاقة الديالكتيكية عن الوجود في الطبقة والمجتمع مع توقف مظاهرها الخاصة في المجتمع الرأسمالي . وثمة ايضاً وراء مفهوم المثل الأعلى في علم الجمال البورجوازي مسألة المتطلبات الفنية لشكل خارجي يعبر عن المضمون بأسلوب مباشر ملموس . وتظل هذه المسألة بحاجة الى حل حتى بعد زوال الاقتصاد الرأسمالي وانعكاسه الايديولوجي في عقول البشر ، ولا يمكن تحويلها الى شيء محدد ، وبيّن بذاته (بدهي) على نحو فوري » .

يشتهر القراء الغربيون بمعاناتهم في إقناع انفسهم أن هذه الجعجعة المرعبة قد تخفي في الواقع فكرة جلية ، لكن نزلاء معسكر سجن يشمل أرجاء الدولة كلها مضطرون للتقيد بأنظمة وقوانين وقائية مجهولة في أمكنة أخرى .

ومهما يكن من أمر فإن لوكاش كان يخاطب مثقفين روسيين مدربين على القراءة بين السطور ، فإن كان ديالكتيك الظاهرة والماهية يظل موجوداً في ظل الاشتراكية ، فليس ذلك إلا طريقة اخرى للقول بأن المعضلات الاساسية للوجود الانساني ما زالت تنتظر حلاً - وعلى وجه الضبط لأن ما يدعوه في المقطع نفسه : « المعضلات الزائفة المربكة في ميدان الايديولوجية » قد زال نهائياً .

وما يمكن ان يخدم به لوكاش علم الجمال في ظروف مختلفة يمكن استنتاجه من تلك المقاطع في الدراسة الرائعة « في عالم الجمال عند شيلر » (١٩٣٥) حيث يسهب بعض الشيء في التعارض بين نظريتي كانط وهيجل في الفن . وما قام به فعلاً يمكن معاينته في التقديم « للأعمال الكاملة » Werke حيث يبلّغ القارىء ان علم الجمال « المادي » - في اعقاب انحلال مدرسة هيجل بعد ١٨٤٨ - قد بلغ اوجه مع ن . ج شيرنيشيفسكي ، ذلك المشارك في تأسيس الحركة الشعبية Populism الجدير بالاحترام ، ورغم انه ليس بالمفكر المبدع الى حد كبير . ويتبع ذلك إعلان يستحق الاستشهاد به .

« لينين وستالين وحدهما ، والحزب البولشفي الذي أسساه

وقاداه ، كانوا وما زالوا يملكون القدرة على كنس ما يسمى بنظريات التحريفية في شتى ميادين الماركسية . . . وأمكن علم الجمال الماركسي ان يثبت نفسه خلال هذه الفترة فقط . . لأنه خلال هذه الفترة وحدها تم جمع كتابات ماركس وانجلز الجمالية ، وعندها فقط برزت للعيان الوحدة المنسقة لعلم الجمال الماركسي . . . وهذه الفترة الحاسمة هي موضوع محاضرتي في الاكاديمية الهنغارية للعلوم بمناسبةمناقشة مؤلف ستالين حول علم اللغة . . . يحلل مؤلف ستالين المسائل الحاسمة لعلم الجمال طريقة جوهرية بحيث تؤهل المرء على ادراك التطور العظيم الذي يمثله عصر لينين وستالين في تاريخ علم الجمال » .

ورأي لوكاش الفعلي حول الموضوع واضح تماماً من مقالته المسهبة عن تشيرنيشيفسكي في المجلد نفسه ، حيث يلحظ بشكل عابر ان تشيرنيشيفسكي ، في ملحوظاته حول شكسبير يخطىء فهم الشكل الأدبي للتراجيديا . هذا فيما يتعلق « بالمثل الأكبر للمدرسةالجديدة » التي اسسها فيورباخ .

غير ان مفهوم لوكاش الغريب لما هو جائز لمنظر تنظيم يدعي العصمة والعلم بكل شيء ـ وليس عبثاً ان توماس مان قد رسم له صورة اليسوعي ـ لا يهمنا . دعنا بالأحرى ندرس « الرواية التاريخية » قبل ان ننصرف الى الموضوع ذي الصلة الوثيقة لآرائه السياسية الفلسفية في أوج عهد ستالين « هيجل الشاب » ١٩٤٨ ، و « تخريب العقل » (١٩٥٣) وهذا لحسن الحظ متوافر لنا دون ان نتجشم عناء شجاعته الأخلاقية أو فقدانها . . لقد ارتدى لوكاش

اقنعة كثيرة اثناء حياته ومثل ادوار خداع مدروسة ومجاملة وتحقير ذات لافتة للنظر حتى بالنسبة الى مقاييس بيئته المختارة ، ولكن عبر ذلك كله لم يذهب بعيداً أو طويلاً عن هدفه الأولي : نظرية علم جمال تقدم الى العالم الجديد للاشتراكية الاوروبية الشرقية ما قدمته المثالية الألمانية بشكل خاص الى العالم البورجوازي ، وان لم يصبح ـ خلافاً للاسطورة التي نسجها المعجبون به ـ « ماركس علم الجمال » ، فيمكن القول انه على الاقل قدم الى موضوعه المفضل ما قدمه ديلثاي Dilthey الى كانط وهيجل : لقد نظم منهجياً هيكلاً من الافكار كان فيها مضى غير مألوف وثوريّ ، جاعلاً اياه بذلك ملائماً للاستهلاك الاكاديمي . وليس ذلك انجازاً تافهاً ، خاصة اذا اخذنا بالاعتبار انه في الفترات السوداء والمشحونة بالاضطراب لا بد من توافر توجيه سكولاستي (سكولائي أو مدرساني) Scholastic لرفع القادمين الجدد الى مستوى يمكنهم من فهم واستيعاب الثقافة التي ورثوها . واذا ما ثبت في النهاية ان لوكاش قد انقذ بعض بقايا الحضارة التي اضحت خراباً ودماراً بعد ١٩١٤ ، فإن خطايا لا مبالاته وجريمته سوف يحكم عليها دون شك بتساهل من قبل المؤرخ .

وانطلاقاً من هذا المنظور ، تعتبر « الرواية التاريخية » انجازاً جديراً بالاحترام ، مع انها تكاد لا تؤلف عملاً عبقرياً كما اعتبرت لدى ظهورها باللغة الانكليزية . فالكتاب ذو الأسلوب العادي والذي يتوجه بوضوح الى جمهور متوسط الثقافة ، يحتوي على بعض الأفكار المهمة حول الفوارق الأساسية ، بين الملحمة والدراما (وهو انشغال قديم للكاتب ، يعود الى ايام ما قبل ١٩١٤)

وحول مشكلة الشكل عامة ، وذلك عندما يقارن بدراسة نظرية اصلية فقط ، مثل : Zur Asthetik Schillers تبدو له جودته الضئيلة جلية . ومرة اخرى لا بد من تحذير القارىء من عدم الحكم على لوكاش من خلال كراسة دعاية سياسية شبه شعبية الفت في أوج التطهير الستاليني الكبير ، أرثوذكسية الطابع على نحو متعمد ، وموجهة الى جمهور كان من الضروري ابلاغه ان هيجل عاش في عصر الثورة الفرنسية . وليس الخطأ خطأ لوكاش في ان يجد القراء البريطانيون والاميركيون من السهل مشاركته في حماسه المفرط نوعاً ما لولتر سكوت(*) وفينيمور كـوبر(**) اكـثر من مشاركة آرائه حول كانط وهيجل وشلينغ . وبطريقة مماثلة ، ليس خطأ ، في ان النظرية الجمالية (التي ينبغي ان تكون فلسفية من اجل ان تستحق التقدير) غير مميزة بوضوح في العالم النـاطق بالانكليزية عن النقد الأدبي : حيث ان هذا الأخير يستخـدم بالضرورة مفاهيم مسلماً بها . « فالنظريـة الهيجلية في الأدب » فلسفية بمعنى مختلف كلياً عن مدلول هذا التعبير في ثقافة تجريبية .

من هنا تنبع ضرورة الاطلاع على كتابات لوكاش النظرية بغية اكتشاف ما يجعله على جانب من الاهمية . و « الرواية الادبية » لا تقع ضمن هذا النطاق . فهي تدور حول شرح لمفاهيم جمالية ترتدي أهمية الاستنتاج الفلسفي فيما وراءها ، غير ان المبادىء غير

(*) ولتر سكوت ۱۷۷۱ ـ ۱۸۳۲ . شاعر وروائي سكوتلندي .

(**) فينيمور كوبر ۱۷۸۹ ـ ۱۸۵۱ . روائي اميركي .

جلية ، وبالنسبة الى أي شخص يعرف ما هي قدرة لوكاش في أحسن أحواله ، يعتبر الكتاب مملاً الى ابعد حد .

ومن جهة اخرى ، ليس مشوهاً على شاكلة الحماسة السجالية التي الهمت مجموعة المقالات المنشورة في ١٩٦٣ بعنوان : « معنى الواقعية المعاصرة » . وألف أصلاً في خريف ١٩٥٥ بشكل ملحوظات لمحاضرة حيث ان لوكاش لم يكد يجمع هذا الإنتاج السيىء الطالع حتى داهمه شجب خروتشوف لستالين ، وانتفاضة ١٩٥٦ الهنغارية ومشاركة لوكاش القصيرة في حكومة ناجي . وما ان اصبح قادراً على كتابة تقديم لطبعة ١٩٥٧ الهنغارية ، حتى انتهى الى استنتاج على الرغم من ضرورة عدم التغاضي عن « انجازات ستالين الايجابية » ، لا بد بالمقابل من « اخضاع دوغمائية ستالين ودوغمائية العهد الستاليني ، لأشد النقد قساوة » . وتوج هذا الحكم باشارة مقتضبة الى روزا لوكسمبورغ - ربما ليست اكثر الطرق لباقة في تذكير القارىء انه كانت فيها مضى فترة لم ينفق فيها الكتّاب الماركسيون وقتهم يدافعون عن الطغاة . والمقالات نفسها ستالينية النغمة والمحتوى كلياً - الى حد ان ناقداً اميركياً بارزاً يحمل آراء يسارية لا يرقى اليها الشك تساءل بصوت عالٍ ما اذا كانت هذه المقالات قد اعدت بغية حملها على محمل الجدية . ولسوء الحظ لا يمكن الشك في ان لوكاش كان جاداً عندما الفها ، لأنه في حملته ضد مؤلفين حديثين مختلفين كان يتبع خطاً فكرياً مألوفاً لديه قبل ان ينحدر الى المستوى الجدانوفي .

اذا كان الكتاب ينطوي على فكرة رئيسية مشتركة، فإنما هو

عداؤه المذهبي لكل اشكال العصرانية أو الحداثة Modernism : وهي مقولة جعلها لوكاش تشتمل على علم النفس الفرويدي ، الموسيقى اللانغمية (النشاز) ومؤلفات جويس ، وبروست وبيكيت وكافكا . وكل ما عاينه عند هؤلاء الكتّاب مما أسماه « الذاتية » وهي على ما يفترض تؤلف صفة مميزة « لتجربة المفكر البورجوازي المعاصر » . ولا معنى لهذه الصفة الملصقة بهم حتى في المصطلحات السوسيولوجية ، لأن جمهور كتّاب كهؤلاء ،. - في الشرق والغرب على حد سواء - لم يعد بورجوازياً . ان المعضلات التي يواجهها جميع المفكرين المعاصرين هي معضلات نظام (مبقرط) سواء أكانوا مديري شركات أم مخططين سياسيين - ايماناً بقدرتهم على جعله نظاماً ناصحاً : شرط ان يلزم المواطنون الهدوء ولا يتدخلوا في جهازه الآلي ، ويكتفوا بالاستمتاع الشخصي . ولو ان لوكاش في العام ١٩٥٥ - الذي كتب هذه الدراسات ، ما زال قادراً على تطبيق تحليل ماركسي على الواقع المحيط به ، لاكتشف ان « الاغتراب » ليس مقتصراً على المجتمع الغربي ، وان العلمية (العلموية) الوضعية لها نظيرها الستاليني . غير انه في هذه الحالة كان انكر التمييز المانوي بين « الاشتراكية » (التي يفترض انها تحققت في الدول البوليسية لأوروبا الشرقية) و « الامبريالية » ، وباختصار ، للتخلي عن العقيدة السياسية التي اصبح معتنقاً متطوعاً لها . ولم يكن هذا الأمر وارداً - ليس في الخمسينات على أية حال . لقد شكل كتاب« معنى الواقعية المعاصرة » تمريناً مجرداً وخالصاً في مساجلات الحرب الباردة .

حتى في تلك الأيام كان من الخطأ إنكار ذكاء لوكاش وقدرته

على التكيف مع الأوضاع الجديدة . وتأكـد له في ١٩٥٥ ان « الحداثة لا تقود الى تدمير الأشكال الأدبية فحسب ، بل الى موت أدب كهذا » ، وأوضح هذه الموضوعة بـالاشارة الى التعبيـرية والسوريالية بشكل عـام ، والى جويس ، وكـافكا ، ومحـدثين آخرين ، بشكل خاص . وعندما باشر في ١٩٦٤ بكتابة مقدمة جديدة للطبعة الالمانية لـ « الرواية التاريخية » (أعيد طبعها كالمجلد السادس في الطبعة الالمانية الغربية من الاعمال الكاملة) كان لديه الوقت الكافي لإمعان النظر في الأمور . وكان ايضاً قد حرر نفسه نوعاً ما من القيود التي لم تضْف لسنين طويلة على كتاباته مجرد مظهر جمود فكري ، بل تبلد شعور كلياً ازاء عملية الإبـداع الأدبي . فكتب مرة أخرى لجمهور مثقف ، مستعيداً أسلوبه الأول على نحو كافٍ ليعتق نفسه من هذا المقطع التالي :

« ان التعارض بين رواية القرن الثامن عشر وروايـة القرن التاسع عشر يبدو للعيان فوراً ، غير ان هذا التناقض لا ينطبق ـ وبتحفظ شديد فقط ـ على سويفت(*) ومعه لا ينعدم التعبـير الواعي عن الوضع الاجتماعي ـ التاريخي فحسب Hic et nune : بل يتم إهماله صورياً . ثمة مرحلة انسانية بأكملها يجابه فيها الانسان صراعاتها الأكثر شمولاً . هذا ما يطلق عليه الآن اسم « الوضع البشري » Condition humaine ، غير ان ذلك يتغاضى عن حقيقة كون سويفت ، برغم كل شيء ، لا يتناول إنساناً من

(*) سويفت ، جوناثان: ١٦٦٧ ـ ١٧٤٥. كاتب انكليزي من اصل ايرلندي .

هذا الطراز ، بل يتناول مصيره في مجتمع محدد تاريخياً . وتنكشف عبقرية سويفت الفريدة في أن نظرته عن المجتمع تشمل عهداً بأكمله . وحده كافكا في عصرنا الحاضر يقدم شيئاً مشابهاً ، حيث ان عصراً بكامله من اللاإنسانية تبعث فيه الحركة كنظير الفرد النمساوي (البوهيمي - الالماني - اليهودي) خلال المرحلة الأخيرة من حكم الامبراطور فرنسيس جوزيف(*) . من هنا فإن عالمه الذي يمكن تفسيره - شكلياً ، وشكلياً فقط - كالوضع البشري ، يرتدي مصداقية عميقة مرهقة ، بعكس اولئك الذين يركزون بدون هذا النمط من الخلفية التاريخية ، وبدون اساس كهذا ومنظور من هذا النوع على كينونة الوجود الانساني المجردة - وبالتالي يخطئون فهمها على نحو مجرد - فيبلغون بشكل لا يخطىء الفراغ التام، العدم . وقد يزين هذا العدم نفسه بحلى وجودية أو غيرها ، لكنه يظل على سبيل المقارنة بكافكا ، عدماً فارغاً » .

ان مقارنة بين هذا المقطع والفصل المتعلق بالموضوع في « معنى الواقعية المعاصرة » حيث نسب لوكاش الى كافكا بأدب (بعد ان تمت مقابلته بشكل سلبي كـ « بورجوازي عصراني » ازاء « البورجوازي الواقعي »: توماس مان) القيام بتصوير « الصفة الشيطانية لعالم الرأسمالية الحديثة » . هذه المقارنة توحي لنا بأن لوكاش قد طرح خلال ١٩٦٤ بعض اغلاله المفروضة ذاتياً ، وهو انجاز مدهش في عمر يناهز الثمانين . وانصافاً للحقيقة ، لا بد ان

(*) امبراطور النمسا (١٨٣٠ - ١٩١٦) .

نضيف انه حتى مجموعة مقالات ١٩٥٥ قد اشتملت على بعض الآراء المتصفة بحدة الملاحظة التي تذكرنا بأسلوبه الأسبق ، مثلاً :

« وحدها الرؤ يا « النبوئية » أو الدراسة اللاحقة لفترة مكتملة ، يمكنها استيعاب الوحدة التي تشكل اساس التناقضات الحادة . مع ذلك ، قد يخطىء المرء في فهم دور القدرة على رؤ ية الأشياء في الأدب ، اذا ما تمت مماثلة الفهم « النبوئي » بنفاذ البصيرة السياسية الصائبة ، اذا ما كانت بصيرة كهذه هي المعيار ، لما امكن وجود دراسة ناجحة للنماذج الشخصية في ادب القرن التاسع عشر . اذ ان كتّاب ذلك العصر الكبار بالذات - بلزاك وستاندال ، ديكنز وتولستوي - هم الذين اخطأوا الى ابعد حد في نظرتهم الى ما سيكون عليه المستقبل » .

وتقع مقاطع كهذا جنباً الى جنب مع تمارين سجالية مستواها ادنى مما يمكن لصحافي كفؤ مثل اهرنبورغ ان ينتجه ، مثلاً :

« استشهدت ، آنفاً ، بملاحظة آدورنو Adorno لجهة ان الموسيقى الحديثة قد فقدت اصالة القلق Angst ، ان هذا المثل ، وأمثلة مشابهة ، يمكن اعتبارها ، اذا ما تم تفسيرها ، اعترافاً بالهزيمة في حقل استعدادات الحرب النووية ، واعترافاً بالتراجع في الحرب الباردة ، وذلك مع تكشف وجهات نظر جديدة للسلم . فالعصرانية ، القائمة على العدمية ، تفقد تلك القدرة الايحائية التي استنبطت الخطط لتغليف العدم بموضوعية كاذبة وهكذا مع تعميق حدة ازمة العصرانية ، تزداد الواقعية النقدية اهمية » .

واضحى هذا النمو من المحاكاة التهتكية الذاتية مع ١٩٥٥

جزءاً اساسياً من الأسلوب المألوف للوكاش الى حد ان المدافعين عنه بدأوا يقنطون منه . وكم كان ارتياحهم عظيماً عندما برز الى الوجود بعد عقد من الزمن « كوجودي » فلسفي في كل حقل بما فيه حقول العصرانية الادبية والفنية . واظهرت المقدمات الجديدة المتخلفة التي اعيد طبعها في « الاعمال » الالمانية الغربية ليونة لافتة للنظر في الأسلوب ، مما يعزى بدون شك الى العمر والأمن والطمأنينة جزئياً ، ولكنها تعكس ايضاً المناخ الفكري الجديد في أوروبا الوسطى : مناخ ليس غريباً كلياً عن تذكر « المرحلة النهائية لحكم فرنسيس جوزيف » . ان نظاماً سلطوياً ـ مغايراً لنظام توتاليتاري بشكل اساسي ، حيث انه نظام ديناميكي وإرهابي في الوقت نفسه ـ لا يطلب شيئاً من فلاسفة اكثر من الحد الادنى من التعقل . طالما انهم لا يتدخلون في شؤون الدولة ، فهم احرار (ضمن حدود معقولة) لقول ما يريدون . وهكذا في ظل ميترنيخ وفي ظل فرنسيس جوزيف ، اللذين حكما فيينا عندما بسط لوكاش جناحيه للمرة الأولى . ومن هذه الناحية على الاقل ، فإن لوكاش والثقافة التي يمثلها قد بلغا مدار اكتمال دائرة النضج .

الفصل السابع

« انه لأمر معروف في ميدان الفن ان فترات مزدهرة معينة ليست بأي شكل من الاشكال متوافقة مع التطور العام للمجتمع وبالتالي مع اساسه المادي وهيكل تنظيمه ، اذا جاز التعبير ، كالاغريق ، مثلاً ، بالمقارنة مع المحدثين أو شكسبير . وفي حالة اشكال فنية معينة مثل الشكل الملحمي فمن المعترف به انه لم يكن انتاجها ممكناً في شكلها الكلاسيكي العالمي ، حالما بدأ الانتاج الفني ذاته ، من هنا فإن اشكالاً هامة معينة ضمن العالم الفني لا يمكن انتاجها إلا عند مرحلة بدائية من تطور الفن فقط . واذا كان ذلك ينطبق على العلاقة المتبادلة بين الأنماط المختلفة حتى دائرة الفن ، فإن الأمر اقل غرابة ان تكون هذه هي حالة علاقة الميدان الفني بأكمله بالتطور العام للمجتمع (*) » .

ان ملاحظة كملاحظة ماركس المذكورة آنفاً تكشف الكثير عن الأصل الهيجلي لافكاره . وواضح ان ماركس احياناً تصور امكانية

(*) كارل ماركس ، نقد الاقتصاد السياسي ، ص . ٣٠ .

انتهاء الفن في عالم معقلن تماماً : وهو توقع لم ينظر اليه بحماسة ، وهكذا ففي المقطع الذي ذكرناه يتابع قائلاً :

« ان الفن الاغريقي يفترض مسبقاً الميثولوجيا الاغريقية . . لم يكن ممكناً للميثولوجيا المصرية ان تصبح اساساً أو قاعدة للفن الاغريقي ، ولكن كان لا بد من وجود ميثولوجيا ما . لذلك فليس ثمة تطور اجتماعي يستثني أية علاقة ميثولوجية ، أو ناسخة للميثولوجيا mythologizing مع الطبيعة مما يتطلب من الفنان التحلي بخيال مستقل عن الميثولوجيا » .

ان ماركس الذي تربى على « فينومينولوجيا الروح » لهيجل لم يكد يكون قادراً على التوصل الى اي استنتاج آخر . ويصعب تصور حالة عقلية اكثر رزانة على نحو عميق في قبولها لقدرها ومصيرها وأشد بعداً عن البلاهة للواقعية الاشتراكية .

وبينما التمس بعض الماركسيين المعاصرين ، كالكاتب النمساوي ارنست فيشر ، ملاذاً في المفهوم القائل بأن الإبداع الفني يحفظ عنصراً من السحر البدائي الذي يتعذر استئصاله يضمن له البقاء ، فقد تعثر لوكاش في عمله الناضج نتيجة تاريخانيته الراديكالية . إن موقفاً كهذا عندما يدفع الى حده الاقصى الذي قاده إليه لوكاش ، فإنه يجعل من المستحيل التسليم بسداد أي شيء يمكن وصفه ـ وفقاً لعبارته شبه الازدرائية ـ « الوضع البشري » . ومع ذلك فبدون مفهوم من هذا القبيل في خلفيته الفكرية ، فإن المنظر الذي ينطلق من هيجل لا بد له ان يتصور الامكانية المكفهرة التي قد تلهى بها ماركس ، أو يفترض خيالاً

مستقلاً من الميثولوجيا . فالصفحات البالغ عددها ٧٢٠ صفحة من رائعة لوكاش ذات المجلدين والصادرة عام ١٩٦٣ ، Die Eigenart des Asthetischen « من ماهية الجمالي » تمثل محاولته لحسم المسألة التي انتابته كهاجس طوال حياته .

قبل محاولة الدخول الى الموضوع ، نحن ملزمون بمعالجة عملين سابقين للوكاش ، حيث كتب ونشر كل منها في أوج عصر ستالين « هيجل الشاب » Der junge Hegel في ١٩٣٨ ، ولكنه لم ينشر حتى ١٩٤٨ ، و « تدمير العقل » (١٩٥٣) . أعيد طبعهما على صورة المجلدين ٨ و ٩ من الطبعة الالمانية الغربية لأعماله الكاملة ، وهما متيسران لكل من يهمه اكتشاف أي إسهام قدمه مؤلفهما الممتاز آنذاك الى الجزء الأساسي Corpus من الأدب (يبدو التعبير ملائماً على نحو لافت للنظر) الذي انتج في اوروبا الشرقية خلال ما اصبح يعرف رسمياً بـ « عصر عبادة الشخصية » . وترتدي كتابات لوكاش في هذه الفترة ، والحالة هذه ، فتنة رهيبة محددة ، اما فيما يتعلق بالباقي فيمكن دراسته من قبل خبراء النقد في النوع الأدبي كتمارين بارزة في فن الانحدار التدريجي . وليس ثمة حاجة الى ان يستوقفنا كتاب « هيجل الشاب » طويلاً . ففرضيته المركزية ـ بأن هيجل الشاب لم يمر بمرحلة دينية ـ قد تم إغفالها بتهذيب حتى من قبل نقاد مؤيدين عادة للوكاش .

اما بالنسبة الى البقية فلا يسهم الكتاب بشيء في الموضوع الذي لم يطرقه في السابق وبلغة اكثر جدارة بالثقافة .

ان كتاب « تدمير العقل » ، وهو مجلد من ٧٥٠ صفحة ،

يعالج بطريقة سجالية تاريخ الفلسفة الالمانية من شلينغ الى هيدغر وياسبرز ، ويضم قسماً حول « علم الاجتماع الالماني في الفترة الامبريالية » ، وقسماً حول الداروينية الاجتماعية ، وتزينه مقدمة مسهبة حيث يبحث فيها « الشعب الذي انبت البريخت دورو وتوماس مونزر وغوته وكارل ماركس » على عتق نفسه من التراث المخجل للاعقلانية : وهو ميراث بلغ ذروته في الأعمال الجنونية الإجرامية التي ارتكبها الرايخ الثالث . ولقد بذلت محاولات لإيجاد بعض الجدارة في هذا التمرين السجالي الضخم ، انطلاقاً من ان التاريخ الالماني قد اتسم بكوارث متتالية ، وان النكبة النهائية قد توسطها جزئياً على الاقل تيارات تفكير رجعي مارست فعاليتها منذ ما يسمى بـ « حرب التحرير » ضد نابوليون في ١٨١٣ . ولنضع جانباً واقع ان هذا الموضوع قد شكل امراً مألوفاً في الصحافة الراديكالية منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر (لقد اثير اساساً للمرة الأولى من قبل لودفيغ بورني وهاينريخ هايني ، وكلاهما ، مفكران يهوديان عاشا منفيين باختيارهما في باريس) ، فإن لوكاش ينسف موقفه بتبني موضوعية انجلز لجهة ان التطور القومي لألمانيا قد وقع فيه الاضطراب على نحو لا يقاوم نتيجة فشل التمرد الفلاحي عام ١٥٢٥ ، مترافقاً مع بدء مرحلة الاصلاح البروتستانتي . لأنه اذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من الاستنتاج بأن التطور اللاحق ، قبل عهد بسمارك وبعده ، قد كان محتماً . ويصبح هذا الاستنتاج اخيراً لا مفر منه ، من ضمن التفسير الخاص « للمادية التاريخية » الذي يشارك فيه لوكاش انجلز (ولكن ليس مع ماركس) . بالرغم من ان ما يلفت الانتباه كون انجلز قد حاول في السبعينات من القرن

التاسع عشر تجنب هذا التفسير باقتراح ان الطبقة العاملة سوف تقوم بالثورة الديمقراطية التي فاتت المانيا بطريقة أو اخرى في عصرها البورجوازي (كان ماركس أقل تفاؤلاً) . اما بالنسبة الى البقية ، فلا بد لمؤلف كتاب مثل « تدمير العقل » ـ وذلك من اجل تحقيق هدفه التعليمي ـ الاستغناء عن نوع المساوىء السياسية التي كانت لا تزال تشكل إبان تأليفه جزءاً من عدة لوكاش .

ثمة دافع يحفزنا الى التوقف عند هذا الحد ، غير انه يستحيل مع الأسف رسم خط فاصل تعسفي بين هذا الانتاج وبين لوكاش ذي المجلدين حول علم الجمال . وبالرغم من دافعه السياسي ولغته المتسمة باللغو المتكرر ، يبقى ان « تدمير العقل » يتضمن جوهراً نظرياً ، من هنا ضرورة استيعابها ، وكما البحث حول هيجل ، كان هذا السجال ضد خلفاء شلينغ ، بين اشياء اخرى ، تمريناً فيما صار لوكاش يعتبره آنذاك شغله الشاغل : الدفاع عن « المادية » ضد المقللين من قدرها . ولا يفيد هنا تعبير « المادية » معنى الانسانية الطبيعية لماركس الشاب (التي هي تطوير القرن الثامن عشر الفرنسي) ، بل هو يشير بالأحرى الى نظرية المعرفة النسخية أو التسجيلية التي توصل لوكاش لمشاطرة لينين فيها . وبلغة تقنية ، انها شكل من الواقعية المعرفية الابستمولوجية (نظرية المعرفة) . وما تؤكد عليه هو ان الفكر البشري يصف عالماً « موضوعياً » مستقلاً عن العقل » ، ليس عالماً يؤلف جهازنا العقلي . علاوة على ذلك ، يؤكد هذا المذهب ان اي خروج عن هذه النظرة يقود الى « الذاتية » وفي نهاية المطاف الى الجنون

الفكري أو السياسي . وفرضت هذه النقطة بالقوة بإشارة خاصة الى دفاتر لينين الفلسفية حول هيجل ، وبذلك اتيح للوكاش تقويض الثائر المتآمر من اولئك النقاد الشيوعيين الذين هاجموه قبل ثلاثين سنة .

ثمة تعارض بالفعل ، بين الفكر وموضوعه وفقاً للوكاش ، غير انه مجرد تعارض نسبي ، ويمكن التغلب عليه بمساعدة منطق هيجل الجدلي أو الديالكتيكي . وهو بالدقة هنا ان كل شيء معرض للخطر ، إذ إن اللاعقلانية تجد مصدرها النهائي في فشل لسد الهاوية التي تفصل الواقع عن صورتها(صورة طبق الأصل) Abblid . ان المرآتية الذهنية تجزم به اللاعقلانية ، وما يصبح في النهاية مصدراً للخجل الجماعي - هو الانفصال الجذري للتفكير عن الكينونة Being لأنه في كل مرحلة من التطور البشري توجد معضلات نظرية تسبب الغازاً منطقية تفسر ، يستنتج الشخص اللاعقلاني ان الطبيعة الحقيقية للكينونة تبقى مغلقة كلياً أمام التفكير القياسي وغير الحدسي ، بينما في حال امتلاكه إدراكاً محكماً للديالكتيك الهيجلي في المظهر والواقع ، سوف يرى ان المعضلة ليست غير قابلة للتفسير . ان الحقيقة حول العالم (من حيث المبدأ على اية حال) يمكن الوصول اليها عبر العقل . ولكن اذا كان الأمر على هذا النحو ، لماذا يوجد هناك شيء كاللاعقلانية اطلاقاً ، ولماذا يكون لها في بعض الأحيان قوة لا تربك المفكرين الأفراد فحسب ، بل ثقافات بأكملها ؟ لأن مهمة النفاذ على نحو اعمق باستمرار ، (وفقاً للوكاش) الى بنية الواقع لا تواجهها

حواجز نظرية فحسب بل وعملية ايضاً . ان المجتمع يمزقه الصراع ، والوضع الطبقي Klassenlage لمفكر (أو مدرسة) يحدد القرار لصالح العقلانية أو اللاعقلانية . وأولئك الذين ينفرون من تبصرات معينة لعدم قدرتهم على تقبل الحقيقة ، سوف يميلون للاعتقاد بأن الفكر عاجز عامة . وبوجيز العبارة ، ان الصراع بين العقلانية واللاعقلانية ، يرتبط بالصراع الطبقي .

ما علاقة كل ذلك بعلم الجمال ؟ بالنسبة الى لوكاش كل شيء يدور حول معرفة حقيقة مركزية واحدة : ان الواقعية في الفن (كما في الفلسفة) تصف العالم ، بمعنى انها - مهما كانت معقدة تلك التوسطات الشكلية المستخدمة في العلمانية - فإنها تؤهل البشر لإدراك حقيقتهم الصحيحة . ان الطبيعة التصويرية ، بقدر ما هي بعيدة ان تكون افضل وسيلة لذلك ، لا تعكس إلا المظهر السطحي . ومن جهة اخرى ، فالعصرانية « الذاتية » تطابق المثالية الذاتية في الفلسفة أو أسوأ من ذلك ، تأتي مطابقة لذريتها اللاشرعية : الحدسية الرومنطيقية . انه التلازم الفني لذلك السقوط التدريجي في اليأس الذي تتسم محطاته باسماء شلينغ وكيركجارد ونيتشه ودوستويفسكي .

« ان شلينغ هو ، موضوعياً ، السابق المباشر لتصور كيركجارد ، عن الديالكتيك ، أو بالأحرى لانكار كيركجارد بأن الديالكتيك يشكل أداة لمعرفة الواقع . . . ومن الأهمية بمكان انه في « المنطق الفلسفي » العملي لشلينغ الشاب تشغل القياس أو المماثلة Analogy حيزاً هاماً ، لذلك فالمرحلة الأولى غير المحددة بعد

اللاعقلانية ، تصبح النمط المنهجي لكل المراحل اللاحقة : ويمثل المنطق الشكلي دائماً على العلاقة المتبادلة الداخلية ، المبدأ المنظم الصوري لكل لاعقلانية تصبو الى ما هو أبعد من تحويل صورة العالم بأكملها الى تيار فاقد الشكل والصورة ، يدرك بالحدس الخالص . وهكذا يحدد منهج شلينغ أسلوب طرح المسألة من قبل شوبنهور ، وفيما بعد من قبل نيتشه ، ومن ذلك الحين فصاعداً في علم النفس الوصفي ، لديلثاي في « فهم المضمون » الفينومينولوجي وفي (علم وجود) انطولوجية الوجودية ، الخ .

والآن ليس ذلك بالنسبة الى لوكاش مجرد مسألة فلسفية ـ كما ستكون بالنسبة الى الهيجلي العادي الذي بمقدوره قبول هذا النقد للمدرسة الرومنطيقية ، انطلاقاً من ادراكه بأن اللاعقلانية مثلت انحرافاً يؤسف له من جانب مفكرين لم يستوعبوا تماماً ، لسبب أو لآخر ، مقصد المنطق الهيجلي . ان ما يؤكده لوكاش هنا وفي مكان آخر ، هو ان شلينغ وخلفاءه التزموا بموقف « ارستقراطي » يحتفظ بالقدرة على فهم الحقيقة ، لنخبة نصبت نفسها بنفسها . لأنه بينما تجزم العقلانية أو بأية حال تلمح الى ذلك ، بأن الادراك الحقيقي للعالم الكلي يقع ضمن نطاق قوة العقل المستقلة ، يطرح اللاعقلانيون صيغة « مبرجزة ـ معلمنة » للايمان الديني : فالشخص المختار بإمكانه وحده ادراك الالوهية . وهذا الاعتقاد ، الذي صاغه سابقاً بشكل توكيدي « فرانز بادر » Bader ورومنطيقيون المان آخرون مبكرون ، اصبح فيما بعد عقيدة كيركجارد وخلفائه ، وعقيدة نيتشه في نهاية المطاف الذي زود

انتليجنسيا « العصر الامبريالي » بأيديولوجيا رجعية امتدت في آخر الأمر الى الطبقة الوسطى وعززت نضالها النشط على نحو متزايد ضد الاشتراكية .

ان لوكاش ماركسي بما يكفي لتأكيد ان المحصلة الكارثية النهائية لـ « تدمير العقل » هذا احدثته قوى سياسية مجذرة في الظروف الفعلية للتاريخ الالماني منذ الثورة الفرنسية . ولكن بما ان وعي المشاركين عند كل نقطة تحول حاسمة - ١٧٨٩ - ١٨٤٨ - ١٨٧١ - ١٩١٨ - ١٩٣٣ يبدو العامل الحاسم في تحديد انتصار اللاعقل ، يواجه القارىء ما يظهر في النهاية كتناقض بسيط - غير ديالكتيكي تماماً . اثرت ازمة الثقافة البورجوازية ، من جهة ، على المجتمع الاوروبي ككل ، ومن جهة اخرى ، تفردت المانيا على توليد الايديولوجية اللاعقلانية التي سيطرت على حياة البلاد الفكرية ، وأدت الى فظائع الرايخ الثالث . وهكذا بدا وكأن القضية الالمانية كانت فعلاً قضية فريدة في حين انه ينبغي وفقاً للالتزامات الشيوعية المألوفة حول « الرأسمالية المتأخرة » ان تصبح اوروبا بأكملها فاشية ، ظلت مقاطعة واسعة من القارة منيعة . ان لوكاش يعزو هذا الوضع الى التأثيرات المتلكئة للثورة الفرنسية (تكاد بريطانيا لا تقع ضمن هذه الصورة) . ولكن اذا كانت الديمقراطية البورجوازية قد مارست كل هذا التأثير والتجديد على اوروبا الغربية الى حد ان تراثها الروحي قد وفر بعد ١٥٠ عاماً القوة الدافعة لحركة المقاومة المناهضة للفاشية - كما حصل فعلاً - عندئذٍ يبدو انه لا مفر من استنتاج ان محن المانيا اللاحقة تعود الى رفضها للثورة الفرنسية مما يشكل الآن موقفاً يمكن الدفاع عنه ،

غير انه يبطل من الاساس علم الاجتماع غير البارع وغير المقنع كلياً للصراع الطبقي عند لوكاش ابان ما يدعوه « عصر الامبريالية » ، اذ ان الصراع الطبقي كان عالمياً ، في حين كان الرايخ الثالث بلا عقلانيته المتطرفة ظاهرة فريدة . ان ما يعنيه لوكاش في الواقع - رغم انه لا يبدو مدركاً لذلك - كون الحركة الرومنطيقية قد دمرت اية امكانية امتلكتها المانيا القرن التاسع عشر لتصبح امة في المعنى الغربي . وهذه هي القضية ، وهي التي تلاقي دعماً في تحليله للحياة الفكرية في المانيا . غير انه لم يمتلك الجرأة الكافية ليعلن بوضوح ان العامل الحاسم كان الوعي القومي . لكن ماركس لم يتردد في اعلان ذلك ، وفي اكثر من مرة بالفعل ، عند مناقشته للتاريخ الالماني ، اوضح هذه النقطة حرفياً . غير ان لوكاش ليس مثل ماركس على الاطلاق - وهي حقيقة من السخف لومه عليها .

ينبغي اذن الحكم على « دمار العقل بأنه عمل فاشل لجهة عدم تحقيقه الهدف الذي وضعه مؤلفه . ان دفاع لوكاش عن التراث الهيجلي ضد شلينغ ونتاجه اللاعقلاني ، يشكل موضوعاً هاماً ومشروعاً . وتشمل الفصول الاستهلالية المكرسة لهذا الموضوع بعض الملحوظات المحكمة حول تاريخ حركة التنوير ونمو وعي تاريخي اصيل ، كان قد توصل الى فهمه على نحو غامض كل من فيكو Vico وهردر Herder قبل ان يصوغ هيجل فلسفة تاريخه . غير ان دفاع لوكاش عن هذا الارث ضد المحطين من شأنه هو دفاع مجرد من الفعالية الحقيقية نتيجة تاريخيته المتنوعة الخاصة . ويلتزم لوكاش بوصفه فيلسوفاً بالمبدأ العقلاني الاساسي لجهة كون

التوصل الى استنتاجات صحيحة حول العالم يقع ضمن نطاق سلطان العقل . اما بوصفه تفكيراً مادياً ، فإنه يعتبر ان من واجبه تذكير القارىء من وقت لآخر بما يسميه مرة « الاشتراط الاجتماعي للعقلانية ، واللاعقلانية » . فتكون النتيجة تشويه نظرية مستعصية . اذا اعتبرت العقلانية ، وجهة نظر اية طبقة ثورية او على الاقل معارضة للوضع الراهن (البورجوازية في القرنين السابع والثامن عشر ، والبروليتاريا في القرن التاسع عشر) عندئذٍ يسقط كلياً التمايز بين النظرية والايديولوجيا . إذن لمَ ينبغي افتراض ان « طبقة صاعدة » فقط يمكنها حمل نظرة واقعية للعالم ؟ ان كون نظام اجتماعي قد وضع في موقف دفاعي ـ لا يحول دون امكانية تبصر أو استبصار متحرر من الوهم حول طبيعة المسار التاريخية . في الواقع ، كان ماركس وانجلز يشيدان على نحو دائم ببلزاك ـ وهو كاثوليكي وملكي وبالتالي رجعي ـ وذلك لوصفه الدقيق للمجتمع البورجوازي ، ويؤيد لوكاش (في « الرواية التاريخية » وفي غيرها) هذا الحكم بحذافيره . وهو لا يتعب من جراء طبعه في ذهن القارىء صورة عن عمق بصيرة بلزاك النفاذة فيما يسميه هو نفسه : « ضرورة المسار التاريخي » : وهي صيغة لم تكن لتجذب بلزاك كثيراً ، وهو الذي لم يكن فيلسوفاً قد ناصب العداء الى حد بعيد الاشتراكيين السان سيمونيين الذين كانت لهم مفاهيم كهذه . ويبدو اذن ، ان كونك تنتمي الى الجهة الخاطئة سياسياً لا يجعل رؤيتك بعيدة عن الوضوح (بطل لوكاش الآخر في « الرواية التاريخية » هو المحافظ والتر سكوت) .

مع ذلك عندما يصل في « تدمير العقل » الى الرومنطيقيين

الالمان ، يتبنى لوكاش اسلوب الداعية الحزبي الذي لا يمكن ان يرى خصومه إلا كأدوات واعية أو لاواعية « للرجعية » . ويصبح الارتباك الناتج مع نيتشه مؤلماً للمشاهدة ، واعتبار نيتشه « عالم نفس في الثقافة ، عالم جمال وعالم اخلاق » يفهم فقط بوصفه « الممثل الأروع والألمع لهذا الوعي الذاتي للانحطاط » . وعمله بأكمله « سجال دائم ضد الماركسية ، والاشتراكية ، بالرغم من عدم قراءته لسطر واحد من كتابات ماركس وانجلز . وتمتع بـإدراك تـوقعي . . . لمـا ستحتـاج اليـه انتليجنسيـا عصـر الامبـرياليـة . . . وأي نوع من الأسئلة سوف يفي بمطالبهـا ورغبتها » . من هنا تأثيره المؤسف على كتّاب تقدمين امثـال هينريج وتوماس مان وبرنارد شو » حتى ان ماركسياً عميقاً مثل فرانز مهرينغ Franz Mehring خدع الى حد القول ان نيتشه ، بالنسبة الى بعض المفكرين المنتمين الى الطبقة الوسطى ، قد يمثل مرحلة انتقالية مفيدة نحو الاشتراكية . ولا يتوصل لوكاش مطلقاً الى استيعاب المفهوم القائل أن التأثير المدمر لنيتشه على جيل من الالمان بأكمله يمكن ان يرد انحلال الايمان البروتستانتي . يبدو ان البعد الديني غير موجود بالنسبة ، اليه ، هكذا بكل بساطة .

وليس هذا الجهل الفريد « مسألة عرضية »، كما يقول في أحد تعابيره المفضلة . فلقد بدأ لوكاش نشاطه كجمالي ، حيث كانت إسهـاماتـه في المجلة الشهريـة الأدبية البـودابستيـة « نيـوغت » (الغرب) تبدي تمسكاً شديداً بالشكلية » . وعندما شرع بعد ذلك بالابتعاد عما اسمـاه « الذاتيـة » فإنـه قام بـذلك بـاسم الميتافيزيقيا ، حيث ان تحوله نحو الافلاطونية المحدثة حوالى ١٩١٠

قد اقنعه أنه لا بد للأعمال الغنية ، بغية ثباتها وبقائها من ان تعكس تسلسلاً « موضوعياً » للقيم . وهذا النمط من « المثالية الموضوعية » ـ وهي خطوة تمهيدية نحو اعتناقه اللاحق لفلسفة هيجل ـ تتعارض بالتأكيد مع المذهب الحيوي الرومنطيقي ، ولكنه كان بالمثل بعيداً عن تاريخيته الراديكالية في أعوامه اللاحقة . ولا يمكن الدفاع عن موقف فكري لهذا إلا اذا اعتمد على شيء مماثل مما أسماه فلاسفة افلاطونيين Platonizing « حدس الماهية » . اما ما تبقى ، فليس له أية دلالة لفهم التاريخ : وهو انهماك لوكاش الرئيسي بوصفه ماركسياً ينسج على منوال هيجل . لقد رأينا سابقاً ان الاشتراكية في البداية اخفقت في إشباع رغباته تماماً لأنها لم تستجب لنوازعه الميتافيزيقية . في الواقع ورط لوكاش نفسه في ١٩١٠ بهذه الملاحظة الخطيرة : « يبدو ان الاشتراكية تفتقر الى تلك القوة الدينية القادرة على امتلاك روح الإنسان بأكملها ، كما كانت الحالة مع المسيحية البدائية » . وامتدت هناك طريق طويلة بين هذا التعبير الفتي وبين مساجلات الخمسينات الصاخبة . وفي الفترة الفاصلة ، فإن « القوة الدينية » التي سعى وراءها عبثاً كانت قد استحوذت عليه : وهو مبرر اضافي لتغاضيه عن مدلولها المتواتر .

وعند هذا الحد يمكننا ترك « تدمير العقل » للمصير القاسي الذي ينتظر أي عمل لم يكن لمؤلفه الشجاعة ليفعل ما يعتقد انه صواب ، ونختتم عرضنا بالقاء نظرة مختصرة على « خلاصة » لوكاش Summa : نظريته في علم الجمال .

الفصـــل الثـــامن

لقد تناولنا بشكل رئيسي الكتابات النقـديةوالسجـالية التي هدف من ورائها لوكاش الى تعبيد الطريق امام عرض ايجابي ونهجي ومنتظم لتنظيره . واذا ما تركنا التسلسل الزمني جانباً (الكرونولوجيا)(*) فإن هذا التغيير في العرض يبدو مبرراً كافياً لتناول كتاب « ماهية الجمالي » Die Eigenert des Asthetischen بشكل منفصل عندما ظهر هذا العمـل في ١٩٦٣ في مجلدين ضخمين (حين كان سيتبعهما دراسة في علم الاخلاق والتي لم تكن خرجت الى الوجود مع حلول عام ١٩٦٩) . كان لوكاش في الثامنة والسبعين من عمره ومصمماً بوضوح على تتويج حياته ببحث مكثف حول نظرية الفن . وجاء النمط الأدائي الهادىء والرزين الذي اختاره لوكاش للمناسبة متعارضاً بجلاء مع كتـاباتـه في الخمسينات ، ومعلنا بالتالي تبدلاً في المناخ الفكري بالاضافة الى بلوغ لوكاش مكانة كلاسيكية ضمن نطاق عمله : وحول حقيقة

(*)Chronology : تعيين التواريخ الدقيقة للاحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمني .

ظرفية تؤكدها الاستشهادات المتكررة من غـوته حين اضحى اسلوبه الجليل ملائماً لشرح المبادىء الجمالية المستمدة باغلبيتها من كلاسيكية الثقافة الفايمارية . وأصر لوكاش على تذكير قرائه بأن غوته وهيجل كانا متعاصرين ، وان هيجل (في ضوء اقواله هو حول الموضوع) يدين الى حد بعيد لأعمال غوته . غير انه لم يقدم من قبل علم الجمال الهيجـلي في مفردات قـائمة عـلى اساس الكلاسيكية الفايمارية . وفي ١٩٦٣ قام بذلك على الوجه الأكمل ـ استشهادات متكررة من ماركس ـ وعلاوة على ذلك ارتدادات عرضية موجزة نحو اللينينية .

ان اية نظرة الى بحث لوكاش الشهير حول علم الجمال لا بد ان تنطلق من الإقرار الصريح بأنه يقـع ضمن تراث أوروبـا الوسطى . ونادراً ما يستشهد لوكاش بكتّاب غير المانيين ، حتى ولو صدف انهم ماركسيون أو هيجليون . قد يصفح المرء عن نفسه حين يفترض ، انطلاقاً من رائعة magnum opus ان لوكاش لم يسبق له ان سمع بـ ر . ج كولينغوود ، ان اشارات عابرة قليلة الى كريستوفر كودويل تستنفد موضوع علم الجمال الماركسي في العالم الناطق بالانكليزية ، حتى ضمن نطاق ثقافته يظهر انتقائياً على نحو مثير للدهشة ، مثلاً ، في تجاهله الكلي لمنشورات معهد فرانكفورت للبحوث الاجتماعية ، وعدم التلفظ بكلمة واحدة حول كتاب ارنولد هاوزر Hauser ، « التاريخ الاجتماعي للفن » وهو عمل عالم بارز ، ويتفق علاوة على ذلك انه ماركسي غير انه لا يشاطر لوكاش وجهة نظره السياسية ، وبالتالي تجاهله . وينطبق

الشيء نفسه على الناقد الادبي الشهير هانس ماير Hans Mayer ، وهو ماركسي ، ولكنه ليس لينينياً ، ومن ثم لا يصح ذكره . صحيح ان لا هاوزر ولا ماير يدعي كونه فيلسوفاً . من جهة اخرى ان ماركسية لوكاش المتصفة بطابع هيجلي Hegelianized هي اثر استثنائي جداً وليس بأية حال العرض الموثوق للموضوع الذي توصل المعجبون به والمنحازون بعض الشيء الى معاينته فيه . ان عرضه لعلم الجمال عند هيجل يفوته باستمرار إدراك ما شكل بالنسبة الى هيجل فكرته الرئيسية المركزية ، أي وحدة الفن والفلسفة والدين التي لا تنفصم عراها . ولا يتوافق بالطبع مفهوم الفن بوصفه كشفاً أو وحياً للحقيقة الفوحسية (ما فوق الحسية) مع المادية التاريخية ، وتكرس مقاطع واسعة من مجلد لوكاش الأول لدحض الفلسفة المتعالية الاستشراقية Transcend entalism (*) بأي شكل أو مظهر . غير ان نهج غوته وهيجل يرفع الفن بشكل ضمني الى مرتبة الكشف (الوحي) قد سدد ضربة الى اللاهوت :

وهو واقع كل من الرجلين مدركاً له تماماً . وما برز لاحقاً عند ماركس وانجلز ككره واضح لكل من كانط وشيلر ، مرفقاً بتفصيل لافت للنظر لشعر غوته وفلسفة هيجل ، كان النتيجة المنطقية كون هيجل وغوته ، في طرائقهما الشديدة الاختلاف ، قد استوعبا سراً فلسفة سبينوزا التي لم يكن يؤتى على ذكرها آنذاك تقريباً . ان

(*) كل فلسفة تقول بأن اكتشاف الحقيقة يتم بدراسة عمليات الفكر وليس عن طريق الخبرة أو التجربة .

ناقداً لمعرفة لوكاش الواسعة لا بد ان يدرك انتماءاته الثقافية . واذا كان يتجاهل هذا الجانب من الموضوع فلا يأتي بصورة جازمة على ذكر سبينوزا إلا من خلال الصلة مع هوبز والماديين الفرنسيين للقرن التالي ، يمكن للمرء التخمين بأن أي خروج على عصر التنوير يبدو كإغواء للارتداد الى المثالية المتعالية لفترة شبابه . وهكذا يحرم نفسه فرصة تحرير علم الجمال الماركسي من النفعيين (مذهب المنفعة) التي لا بد ان تلازم الموضوع على نحو مؤكد ، اذا ما تم استبعاد البعد الميتافيزيقي . ومن ثم هناك الموضوع الغريب لعلاقة غوته بشلينغ ، اذ يتفق المؤرخون الأدبيون غير المقيدين بخط حزبي سياسي ان كره غوته لنيوتن وتأييده للنظرة « العضوية » الى العالم ، كانا دون ريب موقفين غير كلاسيكيين ، فغوته الشاب يعتبر سابقاً للرومنطيقية : وكانت لغوته البالغ صلات بشلينغ ، منشىء (فلسفة الطبيعة Naturphilosophie) الرومنطيقية . ولا يتوافق أي شيء من ذلك مع الصورة المبسطة التي رسمها لوكاش ، حيث تطرح الفلسفة الهيجلية و « الكلاسيكية الفايمارية » مقابل اللاعقلانية والحركة الرومنطيقية ، ان بحث غوته الفلسفي الأوحد ، الذي كتب في ١٧٨٤ - ١٧٨٥ ، صاغ ما وصفه منذ ١٨١٢ « اساس وجوده ككل » أي معاينة الله في الطبيعة والطبيعة في الله . لم يكن هذا النمط من المذهب الاسبينوزي في وحدة الوجود Pantheism ارثوذكسياً بالتأكيد من وجهة النظر اللاهوتية ، غير انه لم يكن « مادياً » ايضاً . بما ان لوكاش ليس في وسعه الاستغناء عن غوته ، فهو يلزم الصمت حول هذه النقطة من الموضوع . وبالمثل لا يدلي بشيء حول تشاؤمية هيجل لجهة مصير

الفن في عالم تجعله الفلسفة ويحيله العلم الى عالم شفاف: وهو مصدر اقوال ماركس المذكورة سابقاً حول هذا الموضوع.

مع ذلك ، اذا عد كتاب « ماهية الجمالي » عملاً هاماً ، فليس ذلك بسبب إسهابه المطوّل ، بل لأنه يحفظ بشكل هامشي بعض عناصر طريقة فهم مميزة تم تفصيلها من جانب لوكاش قبل ثلاثين عاماً في مقال حول ف . ت . فيشر الهيجلي الالماني في اواسط القرن التاسع عشر . ان ما يهم لوكاش فعلاًهو مسألة تفسير العملية الخلاقة لما يسميه « الانعكاس » أو « التمرئي » ، من هنا يصبح ما يطرحه تاريخاً للفن ونظرية لعلم الجمال في آن معاً ، حيث تمتلك الفكرة الرئيسية لهذه الاخيرة نمطاً معيناً في الاستجابة للعالم الذي يختلف بطريقة ما عن سلسلة العمليات الموازية التي تصادف في الحياة اليومية في ميدان العمل (المنفعة) ، في العلوم ، وفي السحر وفي الدين . وهذه كلها بالنسبة الى لوكاش انماط مختلفة لعلاقة اولية بين الانسان وبيئته والتي يسميها « الانعكاس » . ان ماهية Eigenart (peculiarity) علم الجمال تكمن في حقيقة كون البشر قد طوروا ، في مرحلة محددة مشروطة مادياً من التاريخ البشري ، قدرة لتفسير العالم بمصطلحات لم تعد مجرد مصطلحات عملية أو سحرية (حيث ان السحر البدائي نفسه يؤلف وجهاً من وجوه الممارسة العملية اليومية) . . وبخلاف الدين ، الذي يصنفه مع العمل والسحر كجمع بلا وسيط في جوهره بين النظرية والممارسة ، فإن الفن يشابه ، بالنسبة الى لوكاش ، العلم والفلسفة ، من حيث ان الفنان وجمهوره قد تحررا من ضغط الضرورة العملية الفجة ، ومن جهة اخرى ، فهو

مغطى بملاحظة ان الفن ـ بعكس العلم الذي يلغي التشبيه البدائي ـ يشاطر الدين ميلاً نحو تفسير الواقع « الموضوعي » بصور مستعارة من الشخصية البشرية . ولذا يطالعنا الارتياب الشهير بأمر الفن الكائن في الفلسفة الاغريقية من هيراقليطس فصاعداً .

« يعتبر هؤلاء الفلاسفة المبدأ الجمالي ـ ليس بدون سبب ـ مبدأ تشبيهياً ، وذلك لأنهم قد ينظرون الى تجسيم الدين ، الأسطورة ، الخ ، كعدوهم الرئيسي ، لوصم ميدان الفن ـ على نحو جائر تماماً ـ كحليف وأداة للخرافة التجسيمية . تكمن صعوبة اقامة استقلال ذاتي على غرار الاستقلال الذي حققته الفلسفة والعلم في حقيقة ان المبدأ الجمالي . . . لا يمتلك حقاً طابعاً تشبيهياً أو تجسيمياً »(*) .

وما دام التجسيم يشكل بعبع لوكاش الرئيسي كلما انكب على دراسة السحر أو الدين ، فإنه ليس واضحاً للوهلة الأولى لماذا يحتج ضد الحيف في معالجة الفن كحليف للخرافة . يكمن تعليل ذلك في تفسيره الخاص للمبدأ الهيجلي ـ الماركسي الذي يلخصه غوردن تشايلد Gordon Childe ـ وهو من يستشهد به لوكاش بشكل متكرر ـ بالعبارة المألوفة. « الانسان يصنع نفسه » . فالفن ، بكلمة اخرى ، جزء من اضفاء الطابع الانساني ، وهي فكرة اشار اليها هيجل أولاً بشكل غامض في كتاب « فينومينولوجيا الروح » وصاغها ماركس فيما بعد (صياغة) اكثر مادية ، في« المخطوطات الباريسية ١٨٤٤ » . ويشرع لوكاش ابتداء من هذا المنطلق المأمون

(*) Anthropomorphic : خلع الصفات البشرية على الله .

الجانب بالانتقال الى التأكيد المشكوك فيه ، بأن نمط الادراك الجمالي يبرز الى الوجود كجزء من المسار حيث يحول الانسان عالمه ونفسه عبر عمله (الجسدي والعقلي) . الفن انعتاق من الممارسة اليومية ، مماثل . . لنشوء النموذج العلمي « للانعكاس » وان يكن انعكاساً يحتفظ بالنمط التجسيمي للإدراك الحسي . وحده العلم يشكل انقطاعاً جذرياً عن التجسيم . يعتبر لوكاش نفسه في هذه المسألة ، في انسجام مع غوته ، الذي يستشهد بقوله : « ان الانسان لا يدرك كم هو تجسيمي » . وفي الوقت نفسه يقوده تصميمه على انقاذ المبدأ الجمالي من اللاعقلانيةالى تمييز لافت للنظر بين انواع مختلفة من التجسيم .

« انه لمن صميم (النمط) الجمالي اعتبار الصورة طبق الاصل عن الواقع كانعكاس ، في حين يعزو السحر والدين الواقع الموضوعي الى نظامهم الانعكاسي ويطلبون الايمان به . ويقود ذلك في التطور اللاحق الى الاختلاف الحاسم من حيث ان الانعكاس الجمالي يشكل بنفسه نظاماً مغلقاً (عمل الفن) ، بينما يضم كل انعكاس سحري أو ديني بالنسبة الى حقيقة متعالية (منزهة) .

فكل انعكاس ، من جهة ، هو تمثيل لشيء واقعي : وفي حالة الفن ، طبيعة الانسان الجوهرية ووحدة البشرية ، من جهة اخرى ، لا يمثل السحر والدين أي شيء واقعي ، بالرغم من انهما « تعكسان » شيئاً ما . واخيراً ، « يتأكد تماثل الحقيقة والجمال » مع اشارة صريحة الى Keats « كيتس » باعتباره تماثلاً يؤلف ماهية

الادراك الجمالي المباشر والنقي . غير ان هذه التجربة المعاشة (أو الشعور الذاتي) (Erlebnis) لا تستطيع ان تعرف بالحدس عالماً قائماً بذاته من الأفكار أو الماهيات ، كما هي الحال ضمن نسق أو منظومة من « المثالية الموضوعية » . ثمة خاصية لا يمكن اختزالها للميدان الجمالي القائم في نهاية المطاف في الادراك التأملي للحقيقة ـ الجمال ، غير ان هذه ليست كيانات حقيقية . ومن جهة اخرى فإنها ليست مجرد كلمات أو تسميات لمشاعرنا . ما هي اذن ؟ يبدو ان الجواب هو : انعكاسات لحقيقة داخلية لا يماثلها شيء خارجي ، (فليفهم من يستطيع الفهم) .

ولكن لا ينبغي ، بأية حال ، اعطاء الانطباع بأن لوكاش مهتم في المقام الأول بمحاكاة الخلود أو بوصف الاحاسيس الشاعرية . تبرز هذه الجوانب من الموضوع من وقت لآخر ـ وهي تناقش في ايجاز بلغة تعبر عن عاطفة اصيلة ـ غير ان معظم عمله ينهمك في تحليل الفن كفعالية اجتماعية تنشأ تدريجياً من رحم السحر البدائي ، ومن ثم يتكشف عنه ، محاكاة ، رقصاً شعبياً ، أو تصورات خيالية شعائرية أو دينية ، تقليداً أو تنكراً بيئياً Mimesis وذلك قبل بلوغ مرحلة الادراك الجمالي الاصيل في النهاية . تكرس مئات الصفحات لمسائل تتعلق في الواقع بالانتروبولوجيا ، وبعد ذلك فقط يطلع القارىء على قضايا جمالية . حتى عندما يطرق مسائل الأسلوب « والانسجام المتزامن » أو شعر فرلين ، يعود لوكاش باستمرار الى خط فكري يمثله كل من ارسطو وفيكو وهيجل وماركس ، ولا نبالغ اذا قلنا ان معضلته بأكملها ، بوصفه

منظراً ، تتركز على معنى مصـطلحي « انعكاس » و « تمثيـل » representation ان طابع المحـاكاة في الفن يمثـل العالم « كـما هو » ، ولكن على نحو تجسيمي ، وبالتالي بنمط يظهر وهمياً من وجهة نظر علمية . ويحل الصراع بمعونة ديالكتيك هيجل فالمحاكاة « تعكس » الكينـونـة - في - ذاتهـا للعـالم بـربط مـلامحهـا (An-sich-sien) الى الحاجات النوعية النامية والمشروطة اجتماعياً للانسان . وهكذا ، لإعطاء مثل بارز ، ليس التناسب الجمالي (يعرف ايضاً بالجمال الكلاسيكي) « التمثيل الحقيقي لعلاقات جوهرية قائمة في الواقع الموضوعي فحسب ، بل هو ايضاً حاجة اساسية للوجود البشري » . اضـافة الى تعـزيز رفض الـذاتية الرومانسية وفرعها البورجوازي المتأخر ، الحداثة (المنحطة) فهذه الصيغةتؤهل لوكاش لتأكيد « موضوعـية » التمثيل المتسم بالمحاكاة mimentic في المعنى الفلسفي : ليس للمبدأ التجسيمي الأساسي للانعكاس الجمالي « اي عنصر مشترك مع مجرد الذاتية » . وعلى نحو منطقي كافٍ ، يوافق لوكاش على نهج ارسطو في « كتاب الأخـلاق الى نيقـومـاخـوس » Nicomachean Ethics حيث الاخلاقية(الفضيلة) في ترابط وثيق مع التناسب . « يثبت في النهاية ان المحور المنهجي لعلم اخلاق هو معضلة من معضلات التناسب الصحيح » .

وتعرف الفضيلة نفسها وفقـاً للمصطلح الارسـطي الافراط والتفريط كوسط بين الحدود القصوى ، مما لا يعني انها تمثل مجرد « معدل وسط جامد » . وما تدل عليه (المركزانية) في هذا السياق

انما هو تأدية المرء لواجباته !

انه لمن السذاجة الاجابة بأن الاتساق هنا هو مجرد استعارة . انه اكثر من ذلك بكثير . حيث ان الجمال مقولة مركزية للحياة والفن ، فإن ارتباطاً كهذا من المحتوم ان يرسخ وجوده . ليس من الممكن ، لا في الحياة ولا في الفن ، تأسيس الجمال بالاستناد الى قيم جمالية أو اخلاقية ذات طبيعة عابرة أو نسبية : لا بد للجمال من ان يقرر البنية الجوهرية للانسان . واذا لم يكن انبثاق هذا التقرير متعالياً (كما هي الحال عند افلوطين ، واذا لم يكن محض اشعاع مستعاراً متعالياً من عالم آخر ، فيعني التركيب عندئذٍ تناغماً لهذه العلاقات الدنيوية المتأصلة في الانسان ، ومتصلة به بفضل انسانيته . . . والمبدأ الملائم انه في نهاية المطاف هو مبدأ التناسب . . . وبذلك تتجاوز المسألة قضايا ذات شكل مجرد وتلامس . . . . العلاقة المتبادلة والاساسية ، بين علم الاخلاق وعلم الجمال » .

ان الجمال وفقاً للوكاش (كما بالنسبة الى تشرنيشافسكي) هو « حالة خاصة ضمن علم الجمال ، وشكل فريد للتأمل الجمالي وتكوينه ، محتمل فقط في ظل ظروف اجتماعية ـ تاريخية ملائمة للغاية » . واما الأنموذج فهو ، بالطبع ، العصور القديمة الكلاسيكية ، بالرغم من ان ذلك ليس معلناً على نحو مسهب . ويرفض لوكاش في الوقت نفسه السمة الخاصة للكلاسيكية الفايمارية المتمثلة بمعادلة شيلر بين الفن واللهو ، ويعترض لوكاش على عبارة شيلر الشهيرة « يلهو الانسان فقط عندما يكون انسانياً

حقاً ، وهو انساني حقاً فقط عندما يلهو » ، من زاوية ان هذه الصيغة ـ وان تكن « انسانية على نحو عميق » ـ تتجاهل الدور المؤنس للعمل وتقود بذلك الى فصل صارم للفن عن ميدان العمل . ويؤيد قوله هذا باستشهاد من ماركس (« لا يمكن للعمل ان يصبح لهواً ، كما يشاء له فورييه ») . غير انه لا يبدو انه يحقق ذلك اذا كانت الحال كما هي عليه ، من هنا ليس بالمستطاع دمج المجال الفني بنجاح ضمن مسار الحياة اليومية ، حيث تحتفظ صورة شيلر عن جنة عدن ، بالرغم من طوباويتها ، بفعاليتها كنقد ضمني « للوضع البشري » : وهو تعبير ليس مستحباً لدى لوكاش كثيراً (كما مر معنا) .

ولا بد اخيراً من القيام بمحاولة لتوضيح مكانة مفاهيم لوكاش النظرية . لم يكن بالمستطاع محاولة ذلك من قبل ، لأنه كان سيعني اصدار حكم مسبق على اهمية محاولة لوكاش في دمج علم الجمال الهيجلي بعلم الاجتماع الماركسي . وبما ان الخطوط العريضة لمناقشته قد تم رسمها ، فمن الممكن تكوين استنتاج لجهة نجاح المشروع أو فشله . ويمكن لحسن الحظ القيام بذلك دون التورط فيما يعرف بـ « تقدير» الاعمال الفردية للفن . ان اي شخص ليس مؤرخاً فنياً، أو ناقداً ادبياً ، ويغامر في طرق هذا الموضوع لا بد له من ان يمتلك درجة غير عادية من الثقة بالنفس . وفي هذا المجال على الاقل تستحق مزاولة لوكاش نيل الاطراء ، على الرغم من ايمانه بالمبادىء العامة التي يتقيد بها ، فهو يعلن نفسه بصراحة غير كفء ، وعلى سبيل المثال لإعطاء حكم على قيمة اعمال معينة

من القطع الموسيقيةفيها يتعدى العموميات الأكثر جلاء المتعلقة بألف باثها ، والأمثلة المنتقاة لتفسير هذه الحالة مأخوذة في قسمها الاكبر من الدراما أو الرواية وبدرجة اقل من الشعر الملحمي أو الغنائي ، واحياناً من الرسم الزيتي أو من النحت ، أما الأمثلة من الموسيقى فشبه معدومة . وتظهر بجلاء ملاحظاته العامة حول قدرة المحاكاة ، علاوة على ذلك، فهو مهتم في الدرجة الأولى بالنثر ، وبعد ذلك بالشعر ، وتتبعه بمسافة بعيدة الفنون البصرية . ومن غير المجدي ، كما انه ضرب من الادعاء في هذه الحال ، المجازفة ابعد من فكرته الرئيسية : وضع «الانعكاس » كمقولة منطقية يمكن تطبيقها على علم الجمال (ولا يمكن القول ان المصطلح نفسه يستثني تلقائياً ميدان الموسيقى ككل . مع ان لوكاش يناقش هذا القول ، وقد يكون هناك من مغزى ، في أنه يعتصم بصمت فعلي حول هذه النقطة) .

فالسؤال ، اذن ، هو : ما الذي ينقله « الانعكاس » الى لوكاش ولا ينقله معناه التجريبي العادي ، أو ما يصفه احياناً بـ « الواقعية الفوتوغرافية » للفن والأدب الطبيعي «البورجوازي المتأخر » ذلك انه يجب التذكر ان لوكاش يرى نفسه شاغلاً وضعاً مركزياً ، متساوي البعد عن « الذاتية المثالية » من جهة و «الطبيعة الفوتوغرافية » ، من جهة اخرى . وحسب تقديره على الاقل ـ ان لم يكن وفق تقدير نقاده ، الذين كثيراً ما ادهشهم اذعانه السريع للتوافه المتأصلة في نظرية « الواقعية الاشتراكية » وممارستها ـ كان يشن حرباً على جبهتين : ضد الانحطاط الغربي من جهة ، والتبسيط السوفياتي المفرط من جهة اخرى . واذا اجيز لهذاالزعم

ان يمر ، ينبغي ان نسأل ما الذي يميز بالتحديد استخدامه لمصطلح مثل « التمثل » representation عن المعنى العادي له . لا يمكن ايجاد الجواب إلا بتقصي علم الجمال لدى هيجل . لأنه عند هذه النقطة يعني التزام لوكاش بالماركسية غير ذي صلة بالموضوع . وفيما يتعلق بتبني ماركس وانجلز لأية مفاهيم حول طبيعة التجربة الجمالية فإن مقاييسها مشتقة من غوته وهيجل اللذين شاطراهما ايضاً التبجيل الالماني التقليدي للاغريق وشكسبير ، مقروناً بكره بارز للأسلوب الكلاسيكي في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وينبغي ان تلغي هـذه الحقيقة وحـدها مفهـوم كـون « الكلاسيكيةالفايمارية » كانت تتقاسم الشيء الكثير مع ما كان يعرف آنئذٍ بالاسلوب الكلاسيكي في اوروبا الغربية . بالرغم من ذلك كله فإن لوكاش مصمم على اقامة حاجز صارم بين غوته - شيلر وبين نقادهما الرومانسيين ، فيما يسميه « المثالية الموضوعية » - اي ، « الاعتقاد بأن روح الانسان في مجال الفن « الى الطريق القويم » باسترجاع البعد الميتافيزيقي للروح العالمية - هو اعتقاد موجود عند غوته كما هو عند هيجل .

ماذا يتضمن ذلك بالنسبة لنظرية في الفن ؟ في النظرة التجريبية العادية ، يختزن عقل الفنان صوراً مأخوذة من الطبيعة أو المجتمع ، ثم ترتب هذه الصور بالتوافق مع ميله الفردي أو ذوقه . اما حسب الافتراض الكلاسيكي ، فإن هذا التنظيم أو الترتيب للصور - المراتبية طبق الاصل المنسوخة عن محيط خارجي (طبيعي أو اجتماعي) لا تقدم نتائج دائمة إلا اذا « عكست »

التركيب الموضوعي للواقع . لذلك فإن الفنان لا « يبدع » بالمعنى الدقيق : هو يصور ، ويظل ذلك صحيحاً حتى ولو سُلِّم ان الفن ليس مجرد ديكور . لأن ما يُصوَّرَ هو قائم أولاً ، مع انه قد يُبذل جهد معين في استخلاص ما هو حقيقي مما هو محض ظاهري . غير ان ما هو قائم ليس من الضروري ان يكون « واقعاً » . ويوضح لوكاش ، مقتفياً اثر هيجل ، ان التمايز بين المظهر والواقع المألوف في العلم والممارسة اليومية العامية ، غير ملائم فيما يخص الفن ، حيث يسقط الانسان كينونته « الداخلية » على هيئة شيء يوصف عادة كـ «شكل ذي مغزى » . ان هذا الشيء ليس مجرد مظهر خاري « ذاتي » أو ضرب من الوهم ، لأنه يصف (يعكس وفقاً لمصطلحاته) عالماً موضوعياً موجوداً يشترك فيه الفنان مع أناس آخرين ، وفي النهاية مع البشرية ككل ، من هنا قدرتنا على فهم اسلافنا . فالفن باعتباره « الذات والموضوع المتطابقين » للعملية الجمالية يفصل الوعي الذاتي للنوع البشري . لهذا السبب يكون الخيال الفني منتجاً دون ان يكون بالضرورة نزوياً ، فما يولده ليس عالماً خاصاً ، ، بل كل منظم مجذر في نهايةالمطاف في التجربة الجماعية للبشرية . بهذا المعنى « يعكس » الفن حقيقة ، غير ان هـذه الحقيقة ليست حقيقـة « وقائـع » ، وليست حقيقة مجـرد « مشاعر » . الفن هو الصورة المرآة طبق الأصل لعالم « موضوعي » من القيم ، أو بلغة اخرى ، انه يعلن الحقيقة عن العالم .

والآن ، اذا سلم المرء بذلك ، فليس من السهل معاينة كيف يمكن ان يفوته ما يصفه لوكاش بـ « المثالية الموضوعية » (لتمييزها عن « المثالية الـذاتية »لكـانط وأتباعـه) . ان كلا من هيجـل

وماركس ، بشكل عام ، يتعاطى مع نظرية للمعرفة تعود في النهاية الى أرسطو وهي بالتالي « واقعية » ، بمعنى انها تفترض عالماً « حقيقياً » يمكن للعقل ادراكه . وتخدم طريقة الفهم هذه بما فيه الكفاية كحل وسط بين المثالية الافلاطونية وأسلوب الاسمية الفجة التي تعالج المفاهيم المنطقية كمجرد اعلان تقليدي منكرة اية حقيقة « للكليات » المتضمنة في التجربة ، وهي تبطل ايضاً الظاهراتية الكانطية التي تترك رواسب غير مفسرة ـ الشيء في ذاته ـ thing in it self في مكان ما على الحافة الخارجية لعالم الظواهر التي ينشئها العقل البشري . ولكن عندما تثار مسألة علم الجمال ، لا تقدم هذه التمايزات ما يكفي لمساعدة منظر يعتبر « الواقعية » و« المادية » شيئاً واحداً . لنفترض اننا جميعاً نوافق على كون الادراك النافذ الصحيح لطبيعة الواقع يقع ضمن قدرة العقل الحرة . فمن السهل أن نتبين لماذا مثل هذا الاعتقاد يثلج صدر عالم اذا كان بالفعل قادراً على الاحتفاظ به طويلاً . ولكنه كيف يدعم مثل هذا الاعتقاد فيلسوف ملتزم بما يطلق عليه لوكاش (مقتفياً في ذلك اثر انجلز بدلاً من ماركس) مذهب « المادية » ؟ ان واقع العالم الخارجي القائم في الذهن ليس مجال تساؤل . ان ما يهم علم الجمال هو بالأحرى وضع التجربة « الداخلية » . غير ان هذه التجربة ، مهما كانت « حقيقية » ، يمكن تسميتها « مادية » فقط ، بمعنى كونها مرتبطة بحياة كائنات بشرية حية وحقيقية . وفيما يتعدى هذه النقطة ، فإن مصطلح « المادي » يتوقف عن الدلالة على اي شيء ضمن نطاق نظرية الفن . فاذا ما قلنا ان الانسان يدرك نفسه عبر التجربة الجمالية ، لا نقول شيئاً يتنافى مع « المثالية

الموضوعية » بالمعنى الهيجلي ، اذ ان هذا النمط للفهم الذاتي يمر ، في النهاية ، عبر النفس البشرية .

ان لوكاش ، عندما يصف أو يحلل عملية الخلق الفني ، لا يتردد في الإقرار بكل ذلك . ويوضح بمنتهى الوضوح ان العمل الفني يحول التجربة المباشرة الى عالم فريد خاص به : أي عالم القيمة الجمالية . ويصبح التمايز في هذا المجال بين الفكر والعواطف فاقداً معناه تماماً كالتمايز بين الذات والموضوع . يسعى الفن لتمثيل التجربةالبشرية في عملية لامتناهية من فعاليات خلق الشكل وخلق القيم التي تكوّن معاً ميدان علم الجمال . ومع انه يصر على وصف هذه الأعمال بأنها « انعكاسية » أكثر مما هي « خلاقة » ، فلا ينكر لوكاش استقلاليتها الذاتية ولا عالميتها ، بالرغم من انها تحدث بالضرورة عبر العقل المحدود للفنان الفرد . ويساعد هذا الاخير على خلق ما وصفه هيجلي بريطاني معاصر بـ « عالم شامل وسار حيث تحضر فيه العاطفة ، ليس كملاحظة مضافة ، بل كعنصر متمم . ليس العالم واقعاً مجرباً . وهو بالتأكيد ليس تخيلاً ، انه مصنوع من الاحساس والخيال ، غير انه موضوعي واكثر حقيقية من الواقع لأنه يمتلك قيمة فعلية .

هذه هي ايضاً وجهة النظر التي يعتنقها لوكاش . واذا كان لا يستطيع الإفصاح عنها بلغة تلائم الموضوع، فذلك عائد ، على ما يفترض ، الى التزامه بمفردات ، لم تكن معدة لوصف أي شيء إلا عالم « الواقع » بالمعنى العلمي للتعبير . وبالرغم من انه يؤكد حرفياً ان هذه ليست هي المشكلة في ميدان الفن ، يخفق لوكاش

في نقل المعنى الكامل لما يبغيه : وذلك دون شك لأن المصطلحات الوحيدة الملائمة لهذه الفكرة الرئيسية قد استولى عليها قبله هيجل وهي تشكل بالتالي اغراء دائماً للاستسلام الى النظرة الكلية لـ « المثالية الموضوعية » .

لا يعني ذلك انه لا يمكن ان توجد نظرية ماركسية في علم الجمال : بل مجرد ان طريقة الفهم المذهبية المرتبطة باسم جورج لوكاش لا تفسح المجال لجواب غير غامض عن السؤال حول كيفية اتصال نظرية كهذه بسلفها الهيجلي . وما يصح عن علم الجمال ينطبق على عمل لوكاش عامة ، لقد وضع مجموعة هائلة من الكتابات التي يمكن اعتبارها كصيغة متصفة بالطابع الهيجلي للماركسية أو كاستمرارية لعمل ديلثاي في التاريخ العقلي أو الذهني (Geistes geschichte) مع النقل من الدور الذاتي النشاط الواعي الى تفتح عملية مجذرة في نهاية المطاف في ديالكتيك القوى المنتجة المادية والعلاقات الاجتماعية . ويمكن اعتبار الالتباس الذي يتخلل أعماله اللاحقة كدليل على انه ، بغض النظر عن الظواهر التي تبدو نقيض ذلك ، لم يتخلّ أبداً عن افتراضات أيام شبابه العاملة بوحي من تعاليم افلاطون . وبقدر ما تلزم صيغة هيغل لـ « المثالية الموضوعية » الفيلسوف بالإقرار بأن الإبداعات البشرية تمر عبر فعالية عقل الإنسان ، فإن اختيار لوكاش لعلم الجمال كمجاله الخاص لم يكن اختياراًبالمصادفة . اذ انه في حقل الفن ، اذا لم يكن في أي حقل آخر ، تتوافر لمحاولة تصوير « الذات ـ الموضوع المتطابقين » للتاريخ حظ وافر من النجاح . فعلم الجمال يشكل ميداناً يخضع فيه الانقسام الصارم بين العالم الداخلي والخارجي ،

بين العقل والعاطفة ، وبين الواقع والقيمة ، الى ديالكتيك الواقع والمظهر .

وأياً كانت الزاوية التي ينظر من خلالها ، فإن مركزية الفن في عمل جورج لوكاش تشهد على التزام يضعه ضمن نطاق ميراث المثالية الألماني . وما يشكل لبّ هذه الحركة قد أعلنه بوضوح ناقد شهير ليست شهادته بحاجة الى شرعية سياسية :

« ثمة وحدة أساسية في الأدب الالماني ككل ، وذلك منذ حوالى أواسط القرن الثامن عشر حتى وفاة غوته . وهو لخلق فنٍ جديد يختلف عن فن القرن السابع عشر الفرنسي . انها محاولة من أجل فلسفة جديدة ليست مسيحية ارثوذكسية ولا تستند الى حركة التنوير في القرن الثامن عشر . تشدد هذه النظرة الجديدة على كلية قوى الإنسان ، ليس العقل وحده ، ولا الشعور وحده ، بل بالأحرى الحدس « الحدس العقلي » والمخيلة . انها إحياء للافلاطونية المستحدثة، ومذهب في وحدة الوجود (أياً كانت تنازلاتها للارثوذكسية) أحادية توصلت الى توحد بين الله والعالم وبين الروح والجسد ، وبين الذات والموضوع . وكان الداعون لهذه الافكار واعين دوماً لخطورة هذه الآراء وصعوبتها ، التي كانت تظهر لهم مراراً بمثابة مثل نائية فحسب . من هنا « التعرف اللامتناهي » لدى الرومانسيين الألمان ، والتشديد على التطور ، على الفن كتلمس للطريق نحو المثال الأعلى » .

ولقد اصبح لوكاش الشاب لهذا التقليد الميتافيزيقي وريثاً ، وهذه الحقيقة الظرفيةوحدها تضفي افتتاناً دائماً حتى على كتاباته الأقل شهرة .

فهرس الاعلام

Adorno , Theodor

آدورنو ، ثيودور (مدرسة فرانكفورت)

Benjamin, Walter

بنجامين ، فالتر (مدرسة فرانكفورت)

Bergson, Henri

برغسون ، هنري (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) فيلسوف فرنسي ، من ابرز ممثلي الحدسية في تاريخ الفلسفة المعاصرة ، شغل منصب استاذ في الكوليج دي فرانس منذ ١٩٠٠ ، وسيطر طيلة عقود السنين على الفلسفة الفرنسية الحاضرة . من اهم ممثلي فلسفةالحياة والقائلين بالدفع الحيوي .

Bloch, Ernst

بلوخ ، ارنست (١٨٨٥ ـ . . . . .) فيلسوف الماني ماركسي . كان استاذاً في لايبزيغ ثم انتقل الى جامعة توبنغن

(المانيا الغربية) . يسعى في تفكيره الفلسفي الى عمل موسوعي يضم محتويات الأمل في التاريخ الحضاري . أهم مؤلفاته : مبدأ الأمل ١٩٥٤- ١٩٥٧) .

Chernyshevsky, N. G. (co-founder of Russian Popularism)

تشرنيشيفسكي ، نيقولاي (١٨٢٨ - ١٨٨٩) مفكر وناقد روسي انضم الى المنادين بالاشتراكية الديمقراطية . اعتقلته السلطات القيصرية وحكمت عليه بالاشغال الشاقة والنفي الى سيبيريا . تزعم الحركة الديمقراطية الثورية عام ١٨٦٠ في سبيل قيام ثورة فلاحية . له كتابات في علم الجمال ينتقد فيها النظرة المثالية . من أهم مؤلفاته : « دراسات عن عصر غوغول في الأدب الروسي » (١٨٥٥) و « المبدأ الانثروبولوجي في الفلسفة » (١٨٦٠) ، و « طبيعة المعرفة الانسانية » (١٨٨٥)، وله روايتان : « ما العمل ؟ » و « برولوغ » (١٨٦٧ - ٦٩) .

Cohen , Hermann

كوهن ، هرمان (١٨٤٢ - ١٩١٨) اشترك مع باول ناتورب في تأسيس مدرسة ماربورغ الكانطية الجديدة . أصدر عام ١٨٧١ كتابه الشهير « نظرية كانط في الخبرة » .

Dilthey, Wilhelm (1833 - 1911)

ديلثي (ديلثاي) فيلهلم ، فيلسوف الماني ، شغل منصب الاستاذية في برلين منذ ١٨٨٢ ، وسعى الى تأسيس « علم تجريبي للظاهرات العقلية » من اجل ادراك المسارات العقلية التاريخية

بواسطة الفهم . رائد في حقل « نقد العقل التـاريخي » وممثل لفلسفة الحياة .

Feuerbach, Ludwig

فيورباخ ، لودفيغ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) فيلسوف الماني اشتهر بنقده لهيجل واللاهوت المسيحي . اعتنق المادية بين ممثلي اليسار الهيجلي . يعتبر الحس هو الحقيقي بالذات . من مؤلفاته « جوهر المسيحية و« مبادىء فلسفة المستقبل » .

Hegl George Friedrich Wilhelm

هيجل ، جورج فردريك فيلهلم (١٧٧٠ - ١٨٣١) فيلسوف مثالي الماني يمثل ذروة الفكر المثالي في الفلسفة الحديثة وهو من اصحاب المذاهب الفلسفية الشاملة . يعتبـر مصدراً لاتجـاهين اساسيين هما الوجودية والماركسية .

Heidegger, Martin

هيدغر ، مارتن ، فيلسوف الماني معاصر ، مولود ١٨٨٩ في سكيرش بمقاطعة بادن . تتلمذ على هوسرل واحتل مكانـة في الاستاذية بجامعة فرايبورغ (١٩٢٨ - ١٩٤٥) .

Horkheimer, Max

هوركهايمر ، ماكس (مدرسة فرانكفورت)

Husserl, Edmund

هوسرل ، أدموند (١٨٥٩ - ١٩٣٨) مؤسس الفينومينولوجيا أو علم الظاهرات . حاول تأسيس الفلسفة بمثابة « علم صارم »

قبلي . ضد التجريبية والسيكولوجية .

Kautsky, Karl

كاوتسكي ، كارل (١٨٥٤ - ١٩٣٨) مفكر اشتراكي نمساوي الماني ، لعب دوراً رئيسياً في صياغة « برنامج أرفورت » واشترك في تأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي . عارض لينين والبلاشفة مثلما عارض الذين نادوا بتصليح الماركسية وعقائدها .

Kierkegard, Soren

كيركجارد ، سورن (١٨١٣ - ١٨٥٥) فيلسوف ولاهوتي داغاركي ، يعتبر من مؤسسي الفلسفة الوجودية المسيحية ، ومن أوائل الداعين الى تركيز الفلسفة على السؤال عن الوجود الانساني .

Kolakowski, Leszek

كولاكوفسكي ، لتشك ، (١٩٢٧ - . . . . .) فيلسوف ماركسي بولوني الأصل ، يقيم في اوروبا الغربية الآن . له كتابات عديدة ، منها : « الماركسية وما وراءها » . لعب دوراً رئيسياً في احداث اكتوبر ١٩٥٦. طرد من الحزب الشيوعي البولوني عام ١٩٦٦ .

Lask, Emile

لاسك ، اميل ، (١٨٧٥ - ١٩١٥) فيلسوف . تتلمذ على فيندلباند وقام بالتدريس في هايدلبرغ منذ ١٩١٠ ، سعى الى اعادة

تأسيس الميتافيزيقا من خلال نظريته عن مقولات المقولات .

Lowith, Karl

لوفيث ، كارل (١٨٩٧ - ١٩٧١) استاذ للفلسفة في جامعة هايدلبرغ اشتغل بالدراسات في حقل الفلسفة الحديثة وانتقد هايدغر . اشهر مؤلفاته : « من هيغل الى نيتشه » و«فلسفة نيتشه في العود الابدي » .

Luxemburg, Rosa

لوكسمبورغ ، روزا ١٨٧٠ - ١٩١٩ . مفكرة ومناضلة المانية ثورية . قائدة بارزة من قائدات الحركة العمالية العالمية . اشتركت في ثورة نوفمبر ١٩١٨ ، ثم قبض عليها أعداء الثورة في كانون الثاني ١٩١٩ فعذبوها وقتلوها.

Mach, Ernst

ماخ ، ارنست (١٨٣٨ - ١٩١٦) ، فيلسوف وعالم فيزياء نمساوي الاصل . (١٨٩٧)- ١٩٠١) استاذ في فيينا . يرى منشأ العلم وهدفه في ارضاء الحاجات الحياتية الضرورية .

Mann, Thomas

مان ، توماس (١٨٧٥ - ١٩٥٥)) كاتب وروائي الماني . نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٩ . هاجر من المانيا بعد مجيء النازيين واقام بالقرب من زوريخ حتى ١٩٣٨ ، عندما انتقل الى اميركا . اشهر مؤلفاته : « الجبل السحري (رواية ١٩٢٤) وآل

بودنبروك (١٩٠١) و « الموت في البندقية » (١٩١٢) .

Mannheim, Karl

مانهايم ، كارل : (١٨٩٣ - ١٩٤٨): عالم اجتماع مولود في بودابست وتوفي في لندن . من تلامذة ماكس فيبر . استاذ في فرانكفورت حتى ١٩٣٣ . يعتبر مؤسس سوسيولوجية المعرفة (علم اجتماع المعرفة) .

Marcuse, Herbert

ماركوزي ، هربرت ، (مدرسة فرانكفورت)

Natorp, Paul

ناتورب ، باول (١٨٥٤ - ١٩٢٤) فيلسوف الماني ومرب اجتماعي من تلامذة هرمان كوهن البارزين في مدرسة ماربورغ .

Novalis

نوفاليس (١٧٧٢ - ١٨٠١ ـ) هو الاسم المستعار لفردريك فون هاردنبرغ ، شاعر رومنطيقي الماني موهوب جداً . اشتهر بأناشيده الدينية « ترانيم الى الليل » (١٨٠٠) .

Plekhanov , G.V. (1856-1918)

بليخانوف ، جورج (١٨٥٦) ١٩١٨) احد منظري الماركسية البارزين ومن أعظم شارحيها . تعاون مع لينين على اصدار صحيفة « الشرارة » (ايسكرا) . ثم انضم الى المنشفيك بعد

المؤتمر الثاني للحركة الدولية الثانية (الأممية) . من اشهر مؤلفاته: « دور الفرد في التاريخ » و « تطور النظرة الآحادية الجانب الى التاريخ » بالاضافة الى « دراسات في تاريخ المادية » و « الفن والحياة الاجتماعية » .

Rickert, Heinrich

ريكرت ، هاينريخ (١٨٦٣ - ١٩٣٦) فيلسوف الماني كان استاذاً للفلسفة في جامعة هايدلبرغ (منذ ١٩١٦) واشترك مع فندلباند في تأسيس مدرسة الكانطية الجديدة التي انطلقت من تعاليم كانط وفيخته . وتعرف المدرسة هذه بمدرسة الجنوب الغربي (هايدلبرغ) .

Schleiermacher

شلايرماخر ، فردريك دانيال ارنست (١٧٦٨ - ١٨٣٤) فيلسوف الماني ولاهوتي بروتستانتي . سعى الى التوفيق بين النظريات الاجتماعية الحديثة والمعتقدات الدينية الانجيلية . اشهر مؤلفاته كتاب « في الدين » .

Simmel, Georges

سيميل ، جورج (١٨٥٨ - ١٩١٨) فيلسوف وعالم اجتماع درس في جامعة ستراسبورغ ، منذ ١٩١٤ . قال بنظرية براغماتية عن الحقيقة قبل وليام جيمس . ينتمي الى القائلين بفلسفة الحياة . له مؤلفات عديدة منها « فلسفة النقود » وغيرها .

Sorel, Georges

سوريل ،جورج (١٨٤٧ - ١٩٢٢) كاتب فرنسي ومفكر تأثر

بتعاليم فيكو وبرغسون . انتقد الحضارة الحديثة وشدد على الطابع الثوري للاشتراكية . أهم مؤلفاته « أوهـام التقدم » (١٩٠٨) وخواطر في العنف (١٩٠٨) .

Spengler, Oswald

اشنغلر ، أوزوالد ، (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) فيلسوف حضاري ، اشتهر من خلال مؤلفه الرئيسي (انهيار الغرب) (١٩١٨) . نظر الى تاريخ العالم من زاوية حضارات متعددة واعتبر الحضارات بمثابة كائنات عضوية لها دورة حياتية محددة .

Weber, Max

فيبر ، ماكس (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠) مفكر اقتصادي سياسي وعالم اجتماع ورجل سياسة ، مؤسس علم الاجتماع الديني الذي يسعى لرفع العلوم الاجتماعية الى مرتبة العلوم الدقيقة وأمعن النظر في المنهجية التي اعتبرها وصفية بحتة .

Windelband, Wilhelm

فندلباند، فيلهلم ، (١٨٤٨ ـ ١٩١٥) فيلسوف الماني ، شغل الاستاذية في هايدلبرغ منذ ١٩٠٣ . مؤرخ للفلسفة انطلق من نقدية كانط لكي يضع اسس المدرسة الكانطية الجديدة في الجنوب الغربي من المانيا .

Zitta, Victor

زيتا ، فيكتور : مفكر واستاذ للنظرية السياسية . يوغوسلافي المولد . درس في هنغاريا واستمع الى محاضرات لوكاش في ربيع ١٩٤٧ عن « منشأ التفكير الجدلي عند هيجل » يقيم في الولايات المتحدة حالياً .

قائمة المصطلحات

صورة طبق الأصل — Abbild (mirror - image)

لا أدريّ — Agnostic

المعنى — Bedeutung

«البورجوازية المثقفة» (بورجوازية الثقافة) — Bildungsburgertum

Blum Theses

« بلوم » هو الاسم الحزبي (الحركي) الذي حمله لوكاش داخل المنظمة الشيوعية الهنغارية الممنوعة . والاطروحات هي برنامج عمل يرجع الى ١٩٢٨ - ١٩٢٩ .

التفكير المفاهيمي — Conceptual Thinking

deutend verstehen (on the level of meaning)

الفهم على مستوى المعنى (الفهم التأويلي)

النخبوية — Elitism

الاغتراب ، الاستلاب — Entfremdung , Alienation

نظرية المعرفة — Erkenntnistheorie (theory of cognition)

Fabianism

الفابية (الاشتراكية) : نسبة الى جماعة الفابيين (برنارد شو ، سيدني ويب وكيرهاردي) التي تأسست في بريطانيا عام ١٨٨٤ ونادت بالاشتراكية التدريجية التي يتم تحقيقها بالطرق البرلمانية . ابتعدت عن الماركسية وكان لها تأثير على حزب العمال البريطاني .

Facts (Matters - of - fact) وقائع - حقائق

Fin- de- Siècle « نهاية القرن »

Frankfurt school

مدرسة فرانكفورت (للبحوث الاجتماعية) : مدرسة فلسفية نقدية تميل الى علم الاجتماع ، في جامعة فرانكفورت . اشتهر منها آدورنو وهوركهايمر وبنجامين وهابرماس ، بالاضافة الى هربرت ماركوزي .

Galileo Circle حلقة غاليليو

Geisteswissenschaft

علم العقل أو الروح ، ويقال له ايضاً علم الثقافة أو علم التاريخ . منذ منتصف القرن التاسع عشر تطلق هذه التسمية على مجموعة العلوم التي تعنى بالبحث في ابداعات العقل الانساني ، مثل العلم والفن والدين والاقتصاد والقانون .

Geschichtsdialektik جدلية التاريخ ، وديالكتيك التاريخ .

Haute Bourgeoisie البورجوازية العليا .

Heidelberg school

مدرسة هايدلبرغ (أو مدرسة بادن في جنوب غربي المانيا):

احدى المدرستين الرئيسيتين في الكانطية الجديدة. تزعمها فيندلباند وريكرت في جامعة هايدلبرغ .

Hermeneutics (hermeneutik)

فن التأويل والتفسير ـ الاصل اليوناني لهذه اللفظة يعني « فن التأويل » و « فن الترجمة » والايضاح والتفسير، نسبة الى « هرمس » الذي كان وسيطاً في الاساطير الاغريقية بين الآلهة والبشر . ابتدأ هذا التفسير في حقل علوم اللغة من اجل توضيح الآثار الادبية الكلاسيكية . كان ديلثاي في طليعة الذين ادركوا أهمية هذا الفهم التأويلي . ويطلق هايدغر على فينومينولوجية الوجود الانساني في كتابه « الوجود والزمن » تسمية « الهرمنويتيك » .

Hermeneutic understanding — الفهم التأويلي

Holism — الكل

Klassenbewusstsein — الوعي الطبقي

Lebensform — صورة الحياة (صورة حياتية)

Lebensphilosophie

فلسفة الحياة (على غرار فلسفة الوجود)، حيث تؤلف « الحياة » المقولة الرئيسية للتفلسف والنظر الفلسفي .

Marburg school

مدرسة ماربورغ (انظر هرمان كوهن ، باول ناتورب) : مدرسة من مدارس الكانطية الجديدة في جامعة ماربورغ ، المانيا .

Momente (elements) — عناصر

Nacherleben (relive) يعيش من جديد ، يحيا الخبرة مجدداً

Naturwissenschaft

علم الطبيعة : منذ القرن الثامن عشر للدلالة على مجموعة العلوم التي تعنى بالبحث الموجه صوب الطبيعة . ولقد سمي الباحثون في الطبيعة قبل ذلك بالفلاسفة الطبيعيين .

Neo- Kantianism (Neukantianismus)

الكانطية الجديدة : للدلالة على اتجاهات فلسفية في القرن التاسع عشر انطلقت من فلسفة كانط النقدية . عارضت الميتافيزيقا التأملية لدى المثالية الالمانية وأبدت عدم ارتياحها من التأسيس الجداري للعلوم المفردة .

Neo - Platonist افلاطوني محدث

Phenomenology الفينومينولوجيا ـ الظاهراتية ـ علم الظاهرات

Praxis) « براكسيس » = الممارسة ، التطبيق العملي (مقابل Theorie = النظرية

Produktions intelligenz («creative producers»)

المنتجون الخلاقون (الذكاء المنتج)

Psychologism السيكولوجية

Stoical pessimism التشاؤمية الرزينة

Subjectivism النزعة الذاتية

Syndicalism النقابية

Thing-in- Itself الشيء في ذاته

Value Judgements أحكام قيمية

Vanguard	الطليعة
Verdinglichung	التشيؤ
Verstehen	الفهم
Weltanschauung (ger.)	النظرة الشاملة الى الكون والعالم

الفهـرس

سلسلة أعلام الفكر العالمي

فرويد ● ماركس ● هيدجر ● غيفارا ● ماركوز ● البير كامو ● راسل ● فرانز فانون ●
بوشكين ● كافكا ● اندريه مالرو ● سارتر ● هيجل ● ديكارت ● انجلز ● نيتشه ●
غوته ● هوغو ● كانط ● ميكيافيللي ● متزيي ● اراغون ● بيكيت ● بريخت ●
جويس ● روزا لكسمبورغ ● فيبر ● غوركي ● لوكاتش ● لوركا ● دستويفسكي ●
غوغول ● فوكنر ● اندريه جيد ● ماياكوفسكي ● طاغور ● تورغينيف ● داروين ●
برنارد شو ● شتاينبك ● اوسكار وايلد ● رامبو ● اناتول فرانس ● بودلير ● أورويل ●
فلوبير ● دوركهيم ● سبينوزا ● رينان ● ادغار الان بو ● توماس مان ● اودن ● غرامشي ●
تروتسكي ● مالارميه ● سان سيمون ● بيرانديللو ● سرفانتس ● بيرون ● فورييه ●
ديكنز ● بروست ● غراهام غرين ● بلزاك ● تشيخوف ● هنري ميللر ● لورانس ●
فيخت ● أبيقورس ● جان راسين ● أفلاطون ● تولستوي ● سقراط ● بيلينسكي ●
ابسن ● سانت إكزوبري ● كلوديل ● بوذا ● ازرا باوند ● سيزار بافيز ● باريتو ●
لويس ماسينيون ● لوثر ● غارودي ● تريستان تزارا ● فيورباخ ● مرلوبونتي ●
القديس اوغسطين ● مورياك ● ديدرو ● كيركجرد ● مونتيه ● كالفين ● برمنيدس ●
شيشرون ● ستاندال ●

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون، ساقية الجنزير، ت: ٨٠٧٩٠٠١
برقياً موكيالي بيروت، ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

ل.